روايات عالمية

روايات عالمية

www.liilas.com
منتديات ليلاس

يوجيني جرانديه

florist

للكاتب الفرنسي الكبير

أونوريه دي بلزاك

(١)

هناك في احدى مدن الريف الفرنسي ، بيوت قائمة قديمة ، يبعث منظرها الكآبة في النفس .. صامتة كالقبور لاحس فيها ولا حركة ، حتى ليخيل للغريب أنها شاغرة .. لولا تلك العيون التي تطل من النوافذ بين الحين والحين عندما يسمع أصحابها دبيب أقدام في مدينتهم .

ومن بين تلك البيوت الكئيبة العتيقة ، بيت منعزل في طرف الطريق المؤدية الى قصر سومور ويعرف ببيت الاب جراندية ، وهو رجل عصامي كان في شرخ شبابه صانع براميل رقيق الحال ولكنه تزوج ابنة تاجر الخشاب غنى وهو في الاربعين من عمره فاستطاع ان يشتري أفضل كروم المقاطعة ، ثم راح سكانها المدنج يرمقونه بالتجلة والاحترام رغم انه لايعرف سوى القليل من القراءة والكتابة ولا يجيد سوى زراعة الكروم ! وما لبث ان عين عضوا في محافظة سومور ، وزادت ارباحه وتضخمت ثروته أيام الامبراطورية الفرنسية وعين رئيس البلدية ، وان كان لقبه قد تغير واصبح مقصورا على (السيد) جراندية ، لان نابليون كان يمقت الالقاب ويؤثر ان يلقب كل فرنسي بالمواطن تحسب . ثم ورث (جراندية) عن جده ووالدته مبالغ طائلة واراضي واسعة فاصبح أغنى رجل في المقاطعة واحتفظ في أنفته بالفخر الخمور ، وكانت احاديثه مقتضبة موجزة ولا تزيد اكثر

أجوبته على أربع جمل لا يكاد يحيد عنها وهي : « لا اعرف ، لا استطيع ، لا أريد ، سانظر في الامر » كما كانت تبراته هادئة وعباراته غامضة ملتوية لا تنم بالحزم والاقرار .

وكان زاهدا في لقاء الناس وزياراتهم ، ولا يكاد يزوره انسان فيما عدا ستة من السكان في مقدمتهم ثلاثة من آل كريشوه حاكم مقاطعة دي بونفون ، والآخرون سلالة من آل دي كريسان الذين يتزاحمون آل كريشوه في التقرب الى هذا السيد الغني البخيل والتنافس على طلب يد ابنته يوجيني : الاولون يطلبونها للحاكم كريشوه والآخرون يطلبونها للصراف الفرنسي دي كريسان رغم ما يتحدث به اكثر السكان من ان الفتاة ستتزوج من ابن عمها الثري ، ولكن الطامعين في يدها من الاسرتين كانوا مطمئنين الى ما نقل من انقطاع الصلة بين الاخوين منذ اكثر من ثلاثين عاما .

ومن الشخصيات التي تعيش في بيت جراندييه وتستحق الكثير من العناية ، نانون الكبيرة ، خادمة البيت الحميمة العلاقة العجوز ، تلك المرأة التي ذاقت مر الحياة في شبابها ثم اشتغلت عند جراندييه واخلصت في خدمته اخلاصا جعله يطمئن اليها والى امانتها المنقطعة النظير . ومع ان اجرها المتواضع لم يكن يعدو الستين ليرة فانها ظلت تدخر كل ما تناله حتى اصبحت بعد خمس وثلاثين سنة في عداد صغار الاغنياء واصبحت كل خادمة في سومور ترمقها في غبرة وحسد غير عالمة بما ذاقته نانون الكبيرة من أقسى ضروب البؤس والاستعباد . وكانت تناء في ردهة البيت الخارجية حيث

تستطيع ان تسمع ادنى حركة تنبعث وسط السكون المخيم على المنزل في الليل والنهار كما كان عليها ان تنام كالكلب الامين بعين واحدة !!

* * *

وفي خريف سنة ١٨١٩ شاهد أهالي سومور في الصباح الباكر آل جراندييه في الكنيسة يستمعون الى القداس ، فتذكروا أن ذلك اليوم عيد ميلاد الآنسة يوجيني . وفي المساء أسرع آل كريشوه لزيارة آل جراندييه وتهنئة الآنسة يوجيني قبل أن يسبقهم الى ذلك آل كريسان .

وكان قلب السيدة جراندييه في ذلك اليوم فرح لايحد وهي ترى ابنتها يوجيني تبلغ الثالثة والعشرين من عمرها . وكان يضيء وجهها المتقشف القبيح نور من التقوى والورع والقناعة والحياء . وكان زوجها ينتهز مثل فرصة ذلك اليوم ليهمس في اذنها انها ليست دميمة على الاطلاق فتنفرج اساريرها وتؤمن بحديثه وتنسى كل شيء عن بخل ذلك الرجل وشحه المقيت .

ودخل آل كريشوه — بعد القضاء موعد العشاء — يحملون باقات من الورد النادر وتقدم الحاكم يقول للآنسة يوجيني :

— اسمحي لي يا آنسة ان أضرع الى الله في يوم ميلادك السعيد أن تنقضي أيامك في غبطة وهناء وان يحفظ عليك صحتك وجمالك اللذين تنعمين بهما الآن .

ثم قدم لها باقة من الزهور الغالية وقبلها في نحرها

بالقرب من عنقها ، ويهده الطريقة خيل لمحاكم الذى يشبه مسمارا كبيرا علاه الصدأ أنه ينغزل ويتشبث !!

وسرعان ما قدم آل كريسان تقدمهم الأم الجميلة التى لاتزال تحتفظ بالكثير من فتنتها وإلى جانبها زوجها الضابط المتقاعد الذى يمشى رغم سنه المتقدمة بقامة عالية وبخطوات عسكرية وفور . ثم ابتدر يوجينى عانقا :

ـ أنت دائمة الجمال يا آنسة ولا يعرف الإنسان ماذا يتمنى لك فوق ما حبتك به الطبيعة من فتنة وحكمة !؟

ثم قدم لها صندوقا يحمله خادم ويحوى زهرة نادرة من زهور بلاد الكاب كانت قد وصلت الى أوروبا على النو . واحتضنتها السيدة كريسان فى حرارة وهى تقول :

ان ادولف يقدم لك تذكارا أثريا فى عيد ميلادك السعيد .

وإذ ذاك تقدم شاب خجول فى مظهره رغم أنه قدم أخيرا من باريس حيث يعثر عشرة آلاف فرنك فوق نفقاته المدرسية فى كلية الحقوق .. تقدم الى الفتاة بعلبة صغيرة من أبدع ما صنعه الفنانون فى باريس وما ان فتحتها الآنسة يوجينى حتى بهرت عينيها جواهر تخطف الابصار !!

والتفتت الفتاة لتنظر الى والدها نظرة حيرى سائلة أيحق لها أن تأخذ تلك الهدية ؟ فقال لها فى لهجة مسرحية :

خذيها يابنيتى .. الهدية لاترد .

ووقف آل كريسوه مشدوهين عندما رأوا نظرة الاعتراف بالجميل التى أطلقتها سليلة جراندية على أدولف سليل آل كريسيان . وزاد قلقهم عندما قدم السيد كريسان علبة طباق فاخرة بديعة الصنع لصديقه جراندية الذى صاح بخادمته الامينة :

ـ هيا ياناتون الكبيرة وهيئى المناضد لتلعب الورق فى عيد ميلاد يوجينى .

وتجحت السيدة كريسان فى اجلاس ولدها بجوار يوجينى . وراح الجميع يلعبون الورق ويضجون فى الضحك لفكاهات جراندية السخيفة ونوادره الباردة ولكن هذا كان يهمس الى نفسه الماكرة :

كل هؤلاء يجيئون من اجل دراهمى ويتزاحمون على يد ابنتى الغنية ولكنها لن تكون لاحد من الطرفين ؟ وساستخدمهم جميعا كما يستخدم الصياد الشص

وراحت يوجينى تتطلع الى الحشد الماثل امامها والى جانبيها لفرات بريئة خفيضة وهى أشبه بالطائر المثل السجين فى قفص فاخر بسبب علاه ثمنه !! واستمرت الهزلة تمثل على مسرح المطامع والاماني ساعة طويلة حتى طرق الباب فجأة فى قوة وعنف جعلا السيدات يقفزن تقريبا عن مقاعدهن .

وغمغم جراندية قائلا :

ـ ليس هذا طرق رجل من صومور .

بينما صاحت ناتون : أيريدون تحطيم الباب ؟!

ودوى السيدة جراندية شعور غريب وبخاصة عندما قال السيد كريسان :

ـ لا يمكن أن يكون هذا الطرق صادرا عن نية بريئة !

وسرعان ما اطل شاب يتبعه ساعى بريد المهاجرين

يحمل محفظتين كبيرتين فعاود الحاضرين هدوؤهم واستأذنهم صاحب الدار قائلا :

– ارجعوا الى اللعب وساعود بعد أن أعرف ماذا يطلب القادم ٠

ثم خرج وأغلق باب الردهة وراءه ٠ وسـأل أدولف جارته :

– أظن هذا الشاب ابن عمك يا يوجيني ٠ انه شـاب جميل وقد شاهدته في أحد مراقص باريس

ولكن والدة أدولف نكزته بمرفقها وهمست في أذنه :

– صه أيها الاحمق !

واذ ذاك عاد جراندييه يتبعه الشاب الزائر الذي حيـا الحضور في دماثة وابتدرته يوجيني قائلة :

– أظنك تؤثر الجلوس بجوار الموقد بعد رحلتك في الطقس البـارد ٠

فنهرها والدها عابسا : ان للسيد لسانا في فمه ٠٠

ولكن الشاب أجابها باسما : اشكرك يا ابنة العم ٠ ٠

وسألته السيدة كريسان :

– هل جاء السيد من العاصمة ؟٠٠

– نعم يا سيدتي ٠ أنتم تلعبون ؟ حسنا ٠٠ أرجـو أن تتابعوا اللعب ٠٠

وتطلع الحضور في دهشة الى حركات الشاب الارستقراطية ٠٠ وكأنما أراد (شال جراندييه) أن يخلب أولئك الريفيين السذج بهندامه الانيق وأساليبه المصطنعة المتنقاة ٠ وكانت

تلك أول مرة يزور فيها الريف فتحمل معـه أجمل الازياء وأبدع بنادقه ومسدساته ومداه ٠٠ وقدر أن يرى لدى عمه مئات ممن يقضون أوقاتهم في الصيد واقامة الحفلات في القصور

– يجب أن تكون شجاعا والا ما استطعت مغـادرة الريفية الشامخة التي تجمع بين جمال القدم ورعبة الفن٠٠ ولكن هل في وسع باريسي ٠٠ وباريسي من طراز راق ٠٠ أن يندمج في هذا المحيط القروي دون أن يثير حوله عاصفة من التساؤل والاستنكار ؟ ٠

والواقع أن آل كريشوه وآل كريسان مضوا بعـد أقل من ساعة يتطلعون اليه كما يتطلعون الى زرافة وينسـاءلون في سخرية :

– أهكذا الرجل الباريسي ؟ !

أما (يوجيني) فقد خالته (ملاكا) هبط من السماء في ثوب أنيق ورائحة عطرية تنبعث من شعره الكستنائي الجميل ثم بادرت تعاون (نانون) في اعداد مخدع نوم ابن عمهـا الفاتن وطلبت اليها ان تجلب كمية من الخطب لموقده دون ان تطلع أباها الشحيح على الامر ٠٠ كما جاءت ببعض ما تحتفظ به من الاقداح والصور الجميلة فنثرتها على حافة المدفأة ثم قالت لوالدتها :

– ان ابن عمي لن يحتمل بالماء رائحة البنزول ٠

وفتحت محفظة نقودها وأخرجت الليرة الوحيدة التي أعطيتها مصروفا شهريا ثم قالت للخادمة :

– خذي يا نانون ٠٠ اذهبي واشتري شمعا ٠٠

ولما رأتها والدتها تحمل (السكرية) صاحت بها :

ـ ومن اين لك السكر ووالدك يحبسه فى صوان يحتفظ بمفتاحه ؟ ·

ـ سنشترى لى نانون سكرا مع الشمع ··

ـ وأبوك ماذا يقول وهو يرى كل هذا الاسراف ؟!

ـ ألا يجوز ان يشرب ابن اخيه قدحا من الماء المحلى بالسكر ؟ ! ثم أليس هذا عيد ميلادى ؟ وفى تلك الاثناء كانت السيدة كريسان ترعى شارل جرانديه بحديثها :

ـ يجب ان تكون شجاعا والا ماستطعت مغادرة باريس بمباهجها ومسراتها لتقضى الشتاء فى سومور !

واستطرد الشاب بخيبة الامل فاثر ان يعتد حين الحديث التافه بينه وبين السيدة كريسان التى تحتفظ وحدها بالمال الطابع الباريسى ولم يلههالحديث مع الاخرين عن مواسم الكروم والشهور ·· وسألته السيدةالتى استأثرت بانتباهه:

ـ أرجو ان تتنازل فتشرفنا بزيارتك فتحمل الى زوجى ماحملته الى من السرور · ان كبار التجار والنبلاء يجتمعون عندنا فتستطيع أن تحارب الضجر الذى سيستولى عليك حتما اذا بقيت فى دار السيد جرانديه الذى لايعرف شيئا يتعدى غلته ·· اما عمتك فامرأة متدينة متزمتة ، وابنتها فتاة طائشة لاتجيد غير رفى الملابس المزقة ·

وفاجأها زوجها ضاحكا :

ـ يخيل الى انك تريدين الاستئثار وحدك بشارل ؟!

وسأله أدولفا :

ـ لاأدرى هل تذكرنى وقد كنت قريبا منك فى حفلة الرقص التى اقامها البارون نوسنجى فى باريس ؟!

فاجابه شارل وهو يرى نفسه فداصبح محورا لحديث ·· نعم أذكرك ياسيدى ·· والتفت الى السيدة كريسان قائلا :

ـ أظنه ابنك ياسيدتى ؟ فاجابت : نعم

بينما كان صاحب الدار مستغرقا فى تلاوة الكتاب الذى جاء به شارل من والده وهذا نصه : «اخى ها قد مضت ثلاث وعشرون سنة لم نلتق فى خلالها · وكان زفافى آخر مناسبة جمعتنا ثم افترقنا بعدها وكل منا راض عن أخيه · والحقيقة أننى لم أكن اتوقع اذ ذاك ان تصبح عماد اسرتنا الوحيد · وعندما يبلغك خطابى هذا أكون قد تجاوزت هذا العالم الفانى بعد أن ماطلت روحى وجالدت طويلا على حافة الهاوية التى قدر أن اتردى فى نهايتها السحيقة · انى أتألم وأتعذب لاننى مدين باربعة ملايين لا أملك أكثر من ربعها بعد أن قضت ضرورك على تجارتى ، ولكن ولدى لايعرف شيئا عن ديونى وسبب افلاسى ، وقد ودعته وداعا جميلا دون أن يشعر بأن روحى تذوب فى حرارة ذلك الوداع · ترى هل قدر عليه أن يلعننى يوما ما ؟ ان لعنة أولادنا مخيفة يا أخى فأتوسل اليك الا تدع ولدى شارل يشبع ضريحى بكلمة سخط أو تأفف · وانى انما أكتب اليك بلموعى ودمى حيث لا أجد سبيلا الى أن أسكب آلامى فى كتابى هذا اليك ، وانى لاترك لك شارل لتكون له والدا بعد أن حرم كل اقاربه من والدته بسبب خطيئتى وتوصينى فى أن لم أتزوج ابنة نبيل أو كبير · وهكذا

ترى أنني لاستعطفك من أجلي وانما من أجل شارل المسكين الذي اعهد به اليك . ولست أطمع في أن تسدد ديوني ولا أظنك من الثراء بحيث تستطيع ذلك . ولذلك أتطلع الى مسعى دون أن يحاجني أي تأثر أو أسى ، وانما أطمئن الى أنك ستكون لشارل نعم الاب خصوصا وهو دمث الخلق كوالدته الراحلة ، وكم أرثي لهذا الوند المسكين الذي ترعرع في البذخ ولا يعلم شيئا عن الحرمان الذي دفناه في مستهل حياتنا ، ولم أتمن لو أن بذراعي من القوة ما يمكنني من أن أرسله بدفعة واحدة الى السماء بالقرب من والدته الحنون ، ولكني أوثر آخر الامر أن أرسله اليك تطلعه بطريقة هينة على خبر وفاتي وعلى الطير الذي ينتظره معك ، فلا يلاحقني مع الدائنين بعبرات والدته . كما أتوسل اليك أن تخبره أنه لم يخسر كل شيء وان في وسعه أن يثري بالعمل كما أثريت . ويا حبذا لو أقنعته بالرحيل الى الهند فهو شاب شجاع لا يهاب ولا يبعد أن يعود من الشرق غنيا مثريا . أما اذا أبيت أن تستجيب لضراعتي واغلقت بابك دون ولدي المسكين فاني أبتهل الى الله أن ينتقم منك على قساوتك ولكنني واثق من عطفك ورحمتك ولذلك استودعك طالبا الى الخالق أن ينزل عليك رحمته وأن يكلأك برعايته .

« غليوم جراندييه »

وطوى جراندييه الخطاب ثم دسه في جيب صداره وتطلع الى ابن اخيه في رفق وهوادة وسأله :

ـ اذا كنت متعبا يا ولدي ففي وسع نانون أن تدلك على

غرفتك ، وهي ليست أنيقة كما يمكن أن تتصور ولكنك تلتمس العذر لفقاف كروم لم تبق الضرائب على شيء من موالله

ونهض الحاضرون يستأذنون في الانصراف . واذ استندت السيدة كريسان الى ذراع السيد كريشوه همست له :

ـ سيلاحظ الفتى ويفاضل .

ـ ان لنا الآن علوا مشتركا يجب أن نحذره .

ولما انصرف الضيوف التفت جراندييه الى ابن أخيه يحدثه :

ـ انا الآن في ساعة متأخرة من الليل . وسنختار وقتا ملائما في الغد لنتحدث في المهام التي جئت من اجلها . ونحن نفطر هنا في تمام الساعة التاسعة ونتغدى في الظهر ببعض الثمار وقليل من الجبن ونتعشى في الساعة الخامسة . وأنت حر كالهواء في أن تتنزه في المدينة او الضاحية وستلتمس لي العذر اذا لم استطع مرافقتك دائما وحذار من أن تثرثر فمن يتحدثون عن ثروتي الموهومة فانني لا أكاد أملك شيئا غير أرض قاحلة وساعدين قويين وسترى في المستقبل كم تكلف الليرة التي يسيل عرقك في سبيل الحصول عليها .

ـ لا أظنني سأحتاج الى شيء فقد حملت معي من باريس ما يلزمني . والآن اسمح لي أن اتمنى لك ولعمتي ولابنة العم العزيزة ليلة طيبة ونوما هادئا .

ـ سأرشدك الى طريق مخدعك

ومضت (نانون) تغلق الباب الخارجي وتطلق الكلب الكاسر الذي لا يألف غيرها . وغمغم شارل مشدوها :

ـ يا للشيطان ! لماذا أرسلني أبي الى هذا المكان ؟!

(٢)

وفي الطابق الاعلى غرفة لا يسمح جراندييه لغيره أن يتخطى عتبتها لان بداخلها مخابئه السرية وموازين الذهب ودنانير ذلك البخيل . وفيها يضع خطط هجومه وينظم حساباته بدقة يعتقد معها المتعاملون معه أن روح الشيطان تزاوره ! وفي مواجهة هذه الغرفة مخدع يوجيني والى جانبها حجرة والدتها الخاصة بحيث لا يفصلهما غير حاجز من الزجاج . وفوق غرفة الاب حجرة في الطابق التالي أعدها لابن اخيه شارل لكي يعرف سكناته وغدواته .

وتطلع الشاب حوالية الى الجدران المغطاة بالورق البالي والى الاثاث العتيق الزري ثم سأل نانون الكبيرة :

ـ هل أناخيلة لدى السيد جراندييه رئيس البلدية سابقا وشقيق السيد غليوم جراندييه الباريسي ؟!

ـ نعم يا سيدي . هل أفرغ لك محتويات حقيبتك ؟.

ـ خذي هذا المفتاح وهاتي (بيجامتي) منها

ودهشت نانون اذ وجدتها من الحرير ذات رسوم بديعة فهتفت :

ـ اترتدي هذا الثوب عند نومك ؟ سأسرع وأنادي الآنسة يوجيني لتراك وأنت ترتديه !

ـ صه يا نانون ودعيني لانام بهدوء . ومادام هذا الثوب يعجبك فساتركه لك عند رحيلي .

فتسمرت نانون في مكانها تتساءل :

ـ يعطيني هذا الثوب البديع ؟!! انني أحلم بلاشك . أو هو الذي يحلم !!

ثم غمغمت قائلة :

ـ طابت ليلتك يا نانون

ـ طابت ليلتك يا نانون

وتمدد الشاب على سريره يتساءل بدوره :

ـ ماذا جئت أعمل في هذا المكان ؟ وماذا قصد والدي بذلك؟

وفي تلك الاثناء كانت يوجيني تقطع صلواتها متمتمة : « آه كم هو جميل أبيتها القديسة العذراء » أما والدتها فكانت تسمع وقع خطوات زوجها وهو يدرع أرض غرفته جيئة وذهابا وهي تنظر الى زوجها وسيدها ورب بيتها نظرة كل امرأة زيفية حبيبة . وأما زوجها فكان مبلبل الخاطر يحدث نفسه :

ـ أي فكرة عجيبة طرأت على بال أخي فجعلته يورثني ولده ؟ يا له من ارث بديع ؟! لست أستطيع أن أدفع له غير عشرين ليرة فماذا تفعل لهذا الدلال الانيق الذي أخذ يلقى نظرة ازدراء على كل ما يراه في بيتي ؟!

وفي ذلك الهزيع من الليل كانت نانون تهمس الى نفسها شبه حالمة :

ـ سيكون لي هذا الرداء الذهبي الفاتن بالنقوش الدمشقية الزاهية !

ونامت يوجيني تحلم بالحب وبحياة الفتيات البريئات التي تمضي على وتيرة رتيبة ونسق واحد والشمس تنسكب خلالها أنقى أشعتها في نفوسهن ، والازهار توحي الى مخيلاتهن أروع التصورات . وخفقات القلب تدفع العقل الى التفكير في أبدع

الآراء ثم تبتسم الفتاة عند أول عاطفة تنتابها .

ونهضت (يوجيني) من نومها مبكرة كما تفعل الفتيات القرويات ثم وقفت تتزين أمام المرآة وترتب جدائلها الطويلة وغسلت وجهها عدة مرات وهي تتساءل ماذا يفعل ابن عمها حتى اكتسبت ذراعاه هذا النقاء وأظفاره المصقولة هذا الجمال! ثم احتدت أجمل أحذيتها حتى اذا اطمأنت الى فتنتها جلست الى نافذتها تستمع الى دقات الساعة السبع . ولأول مرة ترى كل شيء أمامها جميلا رائعا . ثم فتحت باب غرفتها وهمت عنقها تصغي الى حركة الدار وهي ترد :

— انه لم يستيقظ بعد !

ثم راحت تكنس الحجرة وتوقد النار وهبطت أخيرا نحو نانون التي كانت تحلب البقرة فقالت لها :

— أرجوك يانانون الطيبة أن تضيفي زبدة لقهوة ابن عمي

فضحكت نانون ضحكة رنانة وقالت :

— وهل تنبهيني الى ذلك ؟! ان ابن عمك غاية في الجمال. آه لو رأيته وهو يرتدي ملابسه من الحرير

— اعملي لنا كعكا اذن

— ومن أين لي حطب الفرن والسمن والدقيق ؟ أيجب أن نسرق أباك لتحتفل بابن عمك ؟ اطلبي منه سمنا وخشبا وطحينا فهو أبوك وقد يعطيك ما تطلبين . انظري .. ها هو قد أتى ..

ولكن يوجيني هربت الى الحديقة عندما سمعت قدميه تهبطان الدرج كأنما تخشى أن يقرأ والدها سرها في أساريرها . وكانت ترغب في أن تقول شيئا لابن عمها ولكنها لا تدري ماهو . وأخذت لأول مرة في حياتها تستشعر الخوف عند رؤية أبيها ثم اسرعت الخطى وهي تعجب اذ تستنشق الهواء أكثر عذوبة من قبل !

وقامت مشادة بين نانون وسيدها عندما سألته ان تصنع كعكا لابن أخيه وصاح بها :

— أتريدين أن تقودينا الى الخراب بسبب مجيء ابن .. اخي ؟ ماذا يدور في رأسك ؟!

— وبماذا يحلى ابن أخيك قهوته ؟

— ساعطيك قطعتين من السكر!! سأستغني له عن قطعتين!

— والكعكة ؟ ان يوجيني تريد كعكة

حسنا . حسنا . خذي

ثم فتح خزانة الطحين متأففا وأعطاها قبضتين ثم وزن لها أوقيه من السمن

وعادت نانون القاسية تقول :

— يلزمني حطب لايقاد الفرن

فاجابها القروي بصوت حزين :

— ولكن يجب أن تصنعي لنا فطائر من الشمار وان تطهي الطعام على الفرن كي لا نضطري الى ايقاد نارين .

— لست في حاجة الى من ينبهني الى هذا

فرمق (وزيره) الامين بنظرة شبقة محبة . وعندما لمح ابنته هتف بها :

— تعالي يا ابنتي لتنزه على شاطيء اللوار الى حقول حتى يحين موعد الفطور

وقابلهما في الطريق كريشوه فحياها وهنأ بتحدث الى جراندييه ثم ما لبث ان روع الفتاة عندما قال لوالدها :

— حسنا . لقد استقدمت صهرا من باريس . وقدوم ابن أخيك أصبح حديث كل من في سومور فأجابه في حزم :

— ثق يا صديقي العجوز انني أفضل أن أرمي فتاتي في نهر اللوار على أن أعطيها لابن أخي . وفي وسعك أن تعلن هذا لمن تحلو لهم الثرثرة .

اذن مات أمل يوجينى فى مهده !! اذن قضى على الرجاء الذى نما فى خلبها وازدهر وتفتحت أكمامه !! وكيف تخبو فى صدر والدها عاطفة الابوة وصلة الرحم ؟! وأى جريمة اقترفها شارل !؟

* * *

وحينما عاد كان الفطور مهيأ ولكن يوجينى جرت الى أمها ترتمى فى أحضانها وتنتفض بالاسى وتضمم قائلة :

ـ هل استيقظ ابن العم ؟

فأجابتها وهى تربت على ظهرها :

ـ لندعه يتم ملء جفنيه قبل ان يستيقظ ليسمع أسوأ الاخبار .

ـ ماذا حدث يا اماه ؟ هل قال لك أبى ؟

ـ ان أباك قد ألهب رأسه بالرصاص .

ـ عمى ؟!

ـ نعم . وهكذا أصبح الشاب يتيما ..

فقاطعها جراندیه :

ـ ومسكينا لا يملك شروى نقير .

فراحت يوجينى تنشج بالبكاء ونهرها والدها قائلا :

ـ اذا كنت تبكين من اجل هذا الانيق الاحمق فاحتفظى بدموعك لانه عما قريب سيمضى الى الهند ولن تريه بعد ذلك .. أبدا

ـ آه يا أبى ! أتنى أرثى لحاله .

ثم رقات دموعها بعد قليل وجعلت تعد الفطور والقهوة بيديها لابن عمها . واستيقظ هذا يتلمس حوله مشرئبا بالنشوة مشيعة ثم هبط اخيرا فى الساعة الحادية عشرة يقول :

ـ لعلك قضيت ليلة هانئة يا امرأة عمى ؟ وأنت يا ابنة العم ؟

ـ نعم . شكرا . وأنت ؟

ـ نمت نوما مريحا .. جدا .

ـ يجب أن تكون قد جعت .

ـ أنا لا افطر يا ابنة العم قبل الظهر ويخيل لى أننى بكرت فى الاستيقاظ ! يكفينى الآن دجاجة فهتفت تانون : يا سيدتى العذراء !! لدينا بيض طازج وزبد .

ـ حسنا . سأعوض ذلك فى الغداء .

وبعد أن انتهى من افطاره وشرب القهوة طرق الباب فصاحت يوجينى مرتاعة :

ـ هذا أبى !

ولم يدر الشاب سر صيحاتها الواجفة ! ودخل جراندیه يبتدر ابن أخيه قائلا :

ـ ها قد انتهيت من افطارك . تعال فان لدى أنباء لك .. لا تسر

فهتفت يوجينى : تشجع يا ابن عمى .

واذ ذاك جمد الشاب فى مكانه ثم سرعان ماتبع عمه والقلق ينتهبه . ولم يكن عسيرا أو صعبا على جراندیه أن يفضى لابن أخيه بخبر فقد أبيه ولكنه تردد قليلا عندما أراد أن ينهى اليه انه أصبح معدما . وكم كانت دهشته عندما وجد قلب الشاب يكاد ينفطر لموت والده وأنه لا يابه بأن غدا فقيرا ولا يبالى أن فقد ثروته .

وارتفع عويل شارل وانزوى على نفسه فى مخدعه يتلوى بالالم والحزن بينما أخذ جراندیه يهمس فى أذن فتاته :

ـ لقد أفلس أبوه .

ـ ماذا تعنى يا أبى ؟

ـ الافلاس سرقة لا يسكت عنها القانون . هناك أشخاص استأمنوا أخى ليحفظ أموالهم فبددها جميعها ! ان السارق

أقل خطرا من الفقر فالاول يستطيع ان يظهر ويدافع عن نفسه اما الثاني فيختفي وقد فقد شرفه الى الابد .

– ألم تكن تستطيع انقاذه يا أبي ؟

– انه لم يستشرني وفوق ذلك كان مدينا بأربعة ملايين من الفرنكات وهي دين باهظ لا يطلع فيه ذواء .

– وماذا قررت في شأن ابن عمي ؟

– سيذهب الى الهند تحقيقا لرغبة والده علة يستطيع جمع ثروة .

– وهل لديه من المال ما يمكنه من الذهاب الى هناك ؟

– سأدفع له نفقات السفر الى نانت

– ما أطيب قلبك يا أبي !..

وانهالت يمينه تحتضنه فسيقظ ضميره فليلا .. وهتفت الفتاة بأمها :

– يجب أن نكلف الفتى يا أماه بالقراءة عن روح عمي ..

فاجابتها بادية الحزن والاكتئاب :

– هذا ما كنت اقول عليه ..

فصاح جرانديه :

– حسنا ! دائما أموال تبعثر . أتعتقدين اننا نملك الملايين والآلاف ..؟

ومضى الى الخارج محنقا فتنفست يوجيني وامها الصعداء وقالت يوجيني :

– لنذهب لتعزيته ثم نسرع بالنزول اذا طرق الباب ..

– احذري يا ابنتي أن تتورطي في حبه ..!

– حبه ؟. آه لو عرفت ما قاله أبي ؟.

وجرت تصعد الدرج الى ابن عمها تعزيه فصرخ باكيا :

– دعيني يا ابنة العم .. ان مصابي لايحتمل أي تسرية .

* * *

وفي الساعة الرابعة عاد جرانديه يفرك يديه مغتبطا بارباحه ثم سأل :

– اين الولد ؟ الم ينزل بعد ؟ ماذا يفعل ؟..

فاجابته يوجيني :

– انه يبكي أباه مر البكاء ..

فصعد الى غرفته يتصفح مرة أخرى (الجريدة) التي وصلت مصرع اخيه ثم أخذ يحسب ربحه لو اضطلع بانقاذ الموقف وارقف الدائنين عند حدهم باخذه الامر على عاتقه وهم لا يهمهم سوى أن تكون أموالهم مضمونة بطريقة ما . وهو سيتكفل لهم هذا الضمان .. واخيرا انتهى الى انه سيربح من هذه العملية الف وخمسمائة فرنك في خلال سنتين .

وعندما أعد له العشاء وجلس الى المائدة قالت له زوجته :

– يحسن أن ترتدي ثوب الحداد يا صديقي .

فاجابها مغيظا :

– أنت لا تتركين سبيلا الى الاسراف والتبذير الا مهدته ان الحداد في القلب وليس في الثياب ..

– انه أحوك والكنيسة تامر بأن ..

– اشتري أنت ثياب الحداد من نقودك وسأكتفي انا بشال اسود ..

ثم انتهى من تناول طعامه وقال :

– سأصعد لارى هذا الابله الذي يضرب عن الاكل .

ووقفت زوجته وابنته على طرف الدرج تستمعان الى الحديث بينهما :

– طبيعي أن يحزن الولد على والده باشارل ولكن تشجع فهذا قضاء لا مرد له . أتريد أن تشرب كاسا من الخمر ؟ ان الخمر لا يكفننا شيئا . سأوقد لك المصباح ..

ولما شاهد شمعا سأل نفسه محنقا :

ـ من أين يصيبون الشمع ؟ ان هالة السماء يحرقني حتى سقف البيت ليقلين بيضا لهذا الولد !

وهبط ليؤنب زوجته وكانت قد اسرعت الى غرفتها فصاح بهـــا :

ـ اعثرت على كنز يا امرأة ؟! .

فاجابته وهي تتظاهر بالصلاة :

ـ انتظر قليلا ياعزيزى .. انتظر لانني أصلى

فصاح بها زاعدا :

ـ ليذهب الشيطان بالهك الطيب !.

ـ انني اصلى من اجلك انت

ـ حسنا . سنتحدث في الغد

٣

استيقظت (يوجينى) في فترات متفاوتة من الليـــل تذهب خلالها الى باب غرفة ابن عمها وتستمع ان زفـــراته الحارة وهي تحسبه سيقضي من الالم والجوع . وفي الفجر تناهت اليها زفرة قوية من قلبه جعلتها ترتدى ثيابها على عجل وتقترب من غرفته .. وكان بابه مواربا فتغلبت عليها عاطفتها ووجدت نفسها عند راسه . ورأته يحلم كما يحلم ذوو المعدات الخاوية . وفاضت دموعها وانشجت في بكائها وهي تتامل وجهه الحزين الفاتن . واحس شارل بوجودهـــا ففتح مقلتيه متمتما :

ـ اعذريني يا ابنة العم فانني لا اقوى على النهـــوض وأوثر الانفراد بعد ان فقدت أعز مخلوق لدى ..

فاجابته :

ـ ان الى جانبك قلوبا تسمعك وتحنو عليك ياشارل . يجب أن تنام .

ـ هذا حقيقي

ـ اذن الى اللقاء

وهربت عائدة وهي لاتدرى من أين جاءتها الجرأة على ان تقتحم غرفة شاب ؟ ! وفي الساعة العاشرة صباحا عادت الى غرفته تقول :

ـ هل استيقظت يا ابن العم ؟ أتريد ان تفطر في الردهة أم في غرفتك ؟

فرنا اليها ياسما شاكرا وقال :

ـ كما تريدين

ـ كيف تجد نفسك ؟

ـ اخجل ان اخبرك ان الجوع يكاد يقتلني

ـ اذن سأحمل لك فطورك الى غرفتك .

***

وعاد والدها من الخارج متهلل الاسارير وخلفه خـــادم يحمل ارنبا وطيورا اصطادها ثم قال :

ـ لقد دعوت اثنين من آل كريشنوه

ففغرت زوجته فمها مشدوهة لا تصـــدق اذنيها ! ! واستطرد جراندبه يقول :

ـ اصنعوا عشاء جيدا .

وهمست الام في أذن ابنتها يوجينى :

ـ هذه ثالث مرة بعد زواجي يدعو فيها أبوك أحدا آ

وفي نحو الساعة الثالثة هبط شارل شاحب الوجـــه فاتنه . وزاد حب يوجينى له ما يلقاه من شقاء . وهكذا بين المرأة و (الملاك) شبه يجعلها حليفة البائسين . وانزوى الشاب عند ركن من النضد الطويل ولكن نظرات (يوجينى) كانت تشتمله بين الفينة والاخرى من افكاره الحزينة

واعتزم آل كريسان زيارة جراندية في نفس المساء ليعزوه في مصابه وليعرفوا ماذا دفعه لدعوة آل كريشوه في مثل هذه الظروف . وفي الساعة الخامسة بدأ الاكل فلما انتهى نهض شارل يقول :

– اسمحوا لي ان انسحب لان علي ان اكتب طويلا

ولما خلا جراندية بضيفيه وأمن أن أوت زوجته وابنته الى غرفتهما تحفز للفراغ من مهمته . وذكر اذ ذاك الظروف التي حدت به الى التظاهر بالتلعثم وثقل السمع وهو خير من يتكلم ويسمع : لقد خدع لاول مرة في حياته من رجل يهودي بارع كان يتظاهر بالصمم والتلعثم . كان يضع دائما يده على أذنه لدرجة جعلت جراندية يشفق عليه وينهى اليه كلماته وأفكاره ويتكلم كما يطيب للاسرائيلي . وخرج السيد جراندية من هذا الاجتماع وقد عقد صفقة ظل يندم عليها طوال اخياة ولكنه استفاد درسا لم ينسه مطلقا فيما بعد . وهكذا راح جراندية يبارك هذا الرجل الذي علمه كيف يرهق خصمه ويضجره وبهذا ينسيه خطته التي اعتزم انتهاجها !! وفوق ذلك فليس ثمة مهمة تتطلب العشرة أكثر من مهمته الحاضرة التي يجب ان يغطيها بستار من الغموض .

– أظن .. الافلاس .. يمكن ان يوقف .. بواسطة المحاكم التجارية .. نفسها ؟

فأجابه الحاكم :

– يجوز عندما يكون المدين رجلا محترما مثل أخيك فان المحكمة عندئذ تخول تصفية الاعمال المزمع اعلان افلاسها . والتصفية تختلف عن اشهار الافلاس

– نعم . نعم . لم أفكر قط في هذا . ان التصفية يمكن ان تتم بذلك دون الالتجاء الى المحكمة خصوصا اذا قام رجل محترم فكفل للدائنين أموالهم .. وحال دونهم ودون المطالبة العاجلة بها .. وبذلك يتوقف اعلان الافلاس .. ويشرع الرجل المسئول في التصفية

– انك لو فعلت هذا تقوم بعمل يشرفك ويحفظ اسم عائلتك

– ولكن هذا يتطلب نفقات كثيرة ووقتا كبيرا ، واعمالي لاتسمح لي بمغادرة سومور

ان لك أصدقاء مخلصين يستطيعون معاونتك في هذا الامر . أرسل واحدا الى اكبر الدائنين ليقول له ان اخ الراحل غني ويرغب في تصفية اعمال أخيه بدل الالتجاء الى المحاكم والا لافائدة من مقاضاة مفلس مات . واذا كنت تستطيع السفر فانني مستعد ان اذهب الى باريس وان اتفق مع دائني أخيك بعد ان تقدم لي أموال التصفية وقيمة المصاريف التي يمكن ان أكابدها في سفري هذا .

– شكرا . سننظر في هذا

وطرق الباب اذ ذاك وقدم آل كريسان وفي مقدمتهم كبيرهم يقول :

– جئنا نبدي أسفنا للحادث المؤلم الذي ذهب ضحيته أخوك غليوم جراندية .

فأجاب صاحب الدار متظاهرا بالاكتئاب :

– كان من الممكن الا يحدث هذا لو ان غليوم جاء الي .

والبركة في كريشوه الذي قرر ان يذهب الى باريس للالتقاء مع الثلاثين اتفاق ملائما

استبدت الدهشة بآل كريسان وقال السيد لزوجته:

ـ الم أقل ان جراندیه سيهتم بشرف أخيه اذ ماقيمة المال بلا شرف ؟ !

ثم التفت الى جراندیه يصافحه في حرارة ويقول :

ـ انني رجل عسكري ولا أعرف تنميق فكرتي ولكنني اصارحك بأن هذه فكرة بديعة لغاية مهما كلفت عاليا ،هذه عملية تجارية بحت وتحتاج الى تاجر حاذق . وانا سأذهب الى باريس في بعض الاعمال . واستطيع ان ...

ـ سنرى .. سنرى

ونهض جراندیه يسحب كريسان من يده الى ركن قصي ويهمس اليه :

ـ ان ثقتي بك اكبر من ثقتي بالمحاكم . ارجو الاتذكر شيئا من هذا لآل كريشوه . وربما انك ذاهب الى باريس فارجو ان تلقي نظرة على مخلفات أخي وان تتصرف في القضية بمعرفتك

ـ اتفقنا . اعتمد علي

ثم عاد كريسان يقول بصوت عال يسحق به قلوب آل كريشوه :

ـ سأسافر غدا في عربة البريد وسأتلقى تعليماتك في الساعة الخامسة قبل العشاء . الى اللقاء

* * *

ـ ٤ ـ

تناهت الى سمع يوجيني زفرة شقت الجدران فاسرعت ترقى الدرج وهي تغمغم قائلة :

ـ انه بشائم !

وأوصلتها الزفرة الثانية أمام باب غرفته ووجدت الشاب نائما على مقعده وقد خرج رأسه عن كرسيه وسقطت الريشة من يده على الارض وأمامه خطابات كان يكتبها . وقرأت عناوينها : الى السادة فاري .. الى السيد بولون ..الخ .. فقالت :

ـ لقد رتب أعماله ليسارع الى مغادرة فرنسا .. الى الهند .

ووقعت عيناها على كتابين آخرين ابتدأ احدهما بكلمتي « عزيزتي آنيت » فتسمرت في مكانها وخفق قلبها ثم راحت تقرأ بروعها :

« ما كان يمكن ان يفصلنا شيء لولا هذا الشقاء الذي عبث علي والذي لم يكن أحكم الناس يستطيع التكهن بحدوثه . لقد انتحر ابي وتبخرت معه ثروته وثروتي وأصبحت يتيما في شرخ حياتي ولكن يجب أن أقوم من الهوة التي تردیت فيها وان كنت لا أملك مائة فرنك أذهب بها الى الهند أو أمريكا لتجربة حظي . نعم سأطلب الثروة في بلاد ظفرها فاتل بعد ان غدت اقامتي في باريس مستحيلة . سأسافر كبحار صغير منشبها بالعباقرة الذين كانوا لايملكون شيئا ثم عادوا من الهند أغنياء . ان مناخ الهند يقرب

الاوروبى بسرعة من الشيخوخة . واذا عدت بعد عشر سنوات فستكون فتاتك قد تزوجت . وكذلك صارحك بانني وجدت هنا فى سومور ابنة عم ذهبية القلب يخيل لى أنها .. ،

وخيل الى يوجينى والفرح يستخفها ان الاحياء والنوم غلباه عند هذه الكلمة فاستسلم لهما فى مقعده .

ثم القت نظرها على الخطاب الآخر وقرأت فيه :

« عزيزى الفونس

« فى الوقت الذى تقرأ فيه هذا الخطاب أكون قد فقدت جميع الاصدقاء عداك . ثم أعد امتلك شبنا وسأسافر الى الهند ، وقد كتبت لجميع من يدينونني وستجد مع هذا جدولا بأسمائهم على قدر ماسمحت به الذاكرة فأرجو ان تبيع مكتبتى وعرباتى وخيلى .. لعلها تفى بعض ديونى لهم ... وارجو ان ترسل لى جميع أسلحتى وأن تحتفظ لنفسك بكلبى فان أحدا لن يدفع ثمنا معقولا لهذا الحيوان الامين » ..

فهتفت يوجينى حزينة كليمة الفؤاد :

ـ يا ابن العم العزيز !!

ثم جرت الى غرفتها تحمل شمعة مضاءة حيث دخلت بعض الادراج واخذت محفظة كبيرة من الخمل الاحمر ورثتها عن جدتها وراحت تحصى مابها من عملة ذهبية وفضية قديمة وحديثة وتحصى قيمتها ثم قالت باسمة :

ـ خمسة آلاف وثمانمائة فرنك !

وصعدت دون تردد الى ابن عمها الذى شعر بها وفتح عينيه مشدوها فتقدمت تقول بصوت مؤثر :

اغفر لى خطيئتى يا شارل ! ان الله سيغفرها لى لقد قرأت خطابين ...

فاحمر وجه الشاب وسألها :

ـ لماذا صعدت ؟ لماذا ؟ !

ـ خذ هذه النقود . أتوسل اليك ألا ترفضها . فان انك ستقبلها منى حتى تعود من الهند ..

وجثت تضرع اليه :

ـ لن أقوم من هنا حتى تأخذ هذه النقود . انها خمسة آلاف وثمانمائة فرنك أرجوك ..

فانحدرت دموع الشاب على يدى ابنة عمه ورفعها عن الارض ثم قال :

ـ حسنا ، لقد قبلت

وقام الشاب يخرج من حقيبته صندوقا صغيرا مربعا مغطى بالجلد ثم قال :

ـ هنا شىء ثمين كحياتى . هذه علبة قدمتها لى والدتى . ولو انها قامت من قبرها لباعت مابها من الذهب فى هذا الظرف ولكننى لا استطيع . سأتركها أمانة لديك .

وفتح العلبة عن قطع فنية من الذهب وصورة لوالدته محاطة باللآلىء وأخرى لوالده ثم قال :

ـ احتفظى بهذه الوديعة أمانة حتى أعود . أما اذا هلكت فهذا كله ملك لك وحدك وأخذ يدها يقبلها ويقول :

ـ هل والدك فقير كما يدعى ؟
ـ كلا انه غنى .. جدا ولكنه ..
ـ وهل هذه حياة الاغنياء ؟ !
ـ اذهب وتم فانت متعب
وفى اليوم التالى شاهدت السيدة جراندیه ابنتهـــا تتنزه مع شارل فى الصباح قبل الافطار ولكن الفتاة قالت تبدد وجومها : ان ابى ذهب ولن يرجع الا عند العشاء . سيبيع ذهبه فى السوق .

* * *

وجاء كريسان ليتلقى أوامر جراندیه عنـــدما التامت الاسرة امام المائدة . وقال شارل بادى القلق :
ـ اهناك أمل باعمى فى تسوية الامور ؟
نصاح جراندیه منفعلا :
ـ لست ابن اخى ؟ ان شرفك هو شرفنا . الا تسمى جراندیه ؟
فنهض شارل يعانق عمه ثم مضى الى غرفته موزع القلب بين الاسى والارتياح . وتأملت يوجينى أباها فى اعجـــاب وتقدير وخاصة عندما قال :
ـ وداعا يا سيد كريسان . تغلب على اولئك الناس من أجل سمعة أخى وسمعة العائلة .
وتصالح الدبلوماسيان ثم قاد المضيف العجوز صديقه الى الباب . ولما عاد الى مقعده قال لنانون :
ـ هاتى قدحا من « الكاسى »

وكان بادى السرور والاغتباط فقالت نانون :
ـ هل احضر قدحين لسيدتى والآنسة يوجينى ؟
ـ آه انى لا أمانع أبدا فى شرب الكاسى . فان السيدة جراندیه تصنعه صناعة تفوق صناعه اخوانيت
ـ ذلك لانهم يضيفون له هناك كثيرا من السكر ،وهذا يفقده نكهته .

وابرع الشتاء بتمكين العلاقات بين السيدة جراندیه ويوجينى وشارل . ولقد انجذبت نانون نفسها نحوهـــم دون ان تشعر . فبدا هؤلاء الاربعة يؤلفون وحدهم عائلة مستقلة . أما من جهة جراندیه الذى اطمأن الى ان شـارل سيسافر بعد قليل وانه لن يدفع له الا نفقات السفر الى نانت ، فانه كان قد نسى اهتمامه بوجود شارل فى المنزل ، بعد ان ترك الولدين ، (هكذا كان يسمى شارل ويوجينى) ، ينصرفان كما يحلو لهما تحت رعاية السيدة جراندیه التى كانت تقته بها عظيمة من ناحيتى الخلق والدين

ولقد بدأ شارل يحب هذا البيت الذى لم تعد تدهشه عاداته . فكان ينزل منذ الصباح ليستطيع التحدث مع ابنة عمه قبل مجىء جراندیه لتسليم حاجات البيت . وكـــان يسارع بالهرب الى البستان عند سماعه وقع خطوات الاب ، وقد كانت هذه الحياة البسيطة شديدة الشبه بحياة الاديرة حيث جمال النفوس الساذجة التى تجهل العالم وخداعـــه والتى لم يكن يعتقد بوجودها الا فى القصص الخيالية .
وبعد ثلاثة أيام قاد جراندیه ابن أخيه بعظمة وزهو الى

المحكمة حيث اعلن شارل تنازله عن أرث ابيه وحرر توكيلين لمسيو كريسان والآخر لصديقه الفونس الذى كلفه بتصفية ديونه . ثم انتهى من الاجراءات الخاصة باخراجه جواز سفره وأخيرا عندما وصلت ثياب الحداد البسيطة التى كان قد أوصى عليها فى باريس ، احضر خياطا من سومور وباعه بعض الاثواب التى لم تعد تلزمه . ولقد اعجب هذا العمل الاب جراندية اعجابا لاحد له فقال :

ـ هانت قد اصبحت رجلا حقيقيا يريد ان يمسافر ليجنى ثروة بجده

فاجابه الشاب :

ـ ارجو أن تعتقد اننى استطيع أن أليس لكل حالة لبوسها .

ـ ما هذا ؟ ؟ وقال جراندية وقد برقت عيناه عندما قدم له شارل قبضة من الذهب :

ـ سيدى ، لقد جمعت أزوارى وخواتمى وكل الاشياء التى لم تعد تلزمنى والتى يمكن ان يكون لها قيمة . وبما انى لا اعرف احدا فى سومور اردت ان ارجوك أن ..

ـ أشتريها منك ؟

لا لا . . ان ارجوك أن تدلنى على رجل شريف . .

ـ اعطنى هذا الذهب لاصعد وأقدر لك قيمته الحقيقية

ثم مد البخيل يده الواسعة وأخذ الذهب ثم صعد الى غرفته وخاطب الشاب يوجينى :

ـ أقدم اليك يا ابنة العم هذين الزرين الماسيين . كذكرى بسيطة

وهذه يا امرأة عمى ، حلية من الذهب كنت أحتفظ بها كتعويذة فى سفرى وهى من مخلفات والدتى أقدمها لك بكل سرور .

ـ لايمكننى أن أشكرك ياولدى العزيز ثم اغرورقت عيناها بالدموع وقالت : سأصلى من اجلك صباح مساء .

وعاد جراندية يقول :

ـ ان ذهبك يساوى تسعمائة وثمانين فرنكا وخمسة وسبعين سنتيما . وسادفع لك ثمنه من جيبى الخاص كى اوفر عليك عناء بيعه .

ـ لم أكن أجرؤ ان اقترح عليك هذا الامر ولقد وفرت على عناء بعشرة مجوهراتى فى أسواق سومور وقد قال نابليون « يجب ان نغسل ملابسنا فى داخل منازلنا » والآن يا عمى العزيز ، ان امرأة عمى وابنة عمى قد تفضلتا بقبول تذكار بسيط منى ، فارجوك ان تتقبل هذه الازرار الذهبية تلك والتى لم تعد تلزمنى

يجب ألا تتعرى هكذا يا بنى !! ماذا تحملينى يا امرأتى ... يالها من حلية جميلة !! .. وانت يا يوجينى ! لؤلؤتان من الماس !! حسنا ساتقبل ازرارك يا ولدى ، ولكن ... ستسمح .. لى .. بدورك أن ادفع تكاليف سفرك الى الهند نعم أريد ان ادفع تكاليف سفرك . وذلك لانى عندما قدرت قيمة جواهرك لم أنظر الا الى الذهب الخالص . وهناك شىء يمكن اضافته نظير النقش والفن . سأدفع لك اذن الفا وخمسمائة فرنك اقترضتها من كريشوه لانى لا أملك فرنكا الآن ، الا اذا جاء (حنا) ودفع لى ثمن الجبن المتاخر . هانذا ذاهب لرؤيته .

وقالت يوجينى وهى ترمى ابن عمها بنظرة ملأى بالكآبة والاعجاب : ستذهب اذن ·

ـ يجب ان افعل

وعندما انفرد شارل بابنة عمه فى البستان قال لها وهو يجذبها الى المقعد الهرم تحت شجرة الجوز :

ـ لقد جاءنى خطاب من الغونس ، ولقد احسن التصرف فهو قد رتب أعمالى بحكمة واخلاص· لم أعد مدينا لاحد بفرنك واحد · وقد ارسل لى صديقان عشرة الاف فرنك ستساعدنى كنقطة ارتكاز · ولن استطيع التفكير فى الرجوع قبل بضع سنوات · وارجوك ياعزيزتى الا تضعى مستقبلك ومستقبلى فى كفتى ميزان ، فربما حدث لى حادث ، كما انه من المحتمل ان يتقدم اليك طالب غنى ·· فسألته يوجينى مقاطعة :

أتحبنى ؟؟

ـ أوه كثيرا · فقالت وهى تحاول منع ابن عمها من احتضانها

ـ سأنتظر اذن ··· أوه شارل ، يا الهى ان ابى قرب النافذة ثم سارعت بالهرب ، وتبعها شارل الى طرف السلم حيث فتحت باب الردهة ثم دخلت ومالبثا أن وجدا نفسيهما بالقرب من مرقد نانون ، فى المكان الاكثر ظلاما من الممر · وهناك أخذ شارل يد ابنة عمه ورفعها بلطف وهدوء الى شفتيه متمتما : عزيزتى يوجينى ، ان ابن العم خير من الاخ لانه يستطيع الاقتران بك

ـ ليكن هذا ·

قالت نانون ذلك وهى تفتح الباب ، وارتعب الشابان وهربا الى الردهة حيث أخذت يوجينى وجلس شارل يطالع كتاب الصلوات الخاص بالسيد جراندية ·

وعندما أعلن شارل ميعاد رحيله أكثر جراندية من حركاته

ليظهر لابن أخيه انه كثير الاهتمام به !! لقد كان كريما جدا بالاشياء التافهة التى لاتكلف شيئا ! ولما أراد شارل أن يستدعى نجارا ليصنع له صناديق ادعى جراندية ان هذا الرجل كثير الطمع وقرر أن يصنع صناديق ابن أخيه بنفسه · وراح صباح كل يوم ينشر الخشب ويدق المسامير حتى توصل أخيرا الى صنع صناديق بديعة وضع فيها جميع أمتعة شارل · وعمل بنفسه على تأمين وصولها الى نانت ·

وأخيرا سافر شارل · وقد ودعه على المحطة السيد جراندية وزوجته والسيد كريشوه ويوجينى وعندما لم تعد الفتاة الواقفة على المرفأ ترى ظل الباخرة التى أقلت ابن عمها ، استندت على صدر أمها باكية وهى تتشج : يجب ان يكون ذلك الان صبر الالهة ياأماه ·

٥

بمصرف فرنسا المعلومات الكافية عن جميع ثروات اقريف الكبرى · ولذلك كانت أسماء ذى كريسان وفلكس جراندية معروفة بالثقة المالية التى توحيها أراض زراعية واسعة وأملاك شديدة الخصب ·

ولقد كان وصول صراف سومور ، لتصفية أشغال جراندية الباريسى باعثا على الثقة فى قلوب الدائنين · فرفع الحجز وانتهت الاجراءات الخاصة بالوراثة · ثم اجتمع الدائنون وانتخبوا ذى كريسان رئيسا ، يساعده فرنسوا ومهدوانهما جميع السبل اللازمة لانقاذ اسم جراندية وانقاذ أموالهم ، وكان كل منهم يقول مطمئنا : سيدفع جراندية القروى ·

وبعد مضى تسعة أشهر وزع كريسان وزميله ٤٧٪ من مال كل دائن · ولقد تجمعت هذه القيمة بعد بيع أشياء بسيطة من محل جراندية الباريسى · وقد حصلت على هذه القيمة بامانة ودقة متناهيتين اعادت الى مخيلة الناس صورة الشرف

التى عرفوها عن عليوم جراندية . وما لبثت الضجة أن حدثت حتى رجع الدائنون يطالبون ببقية مالهم وكتبوا بهذا المعنى الى السيد جراندية الذى تلقى خطاباتهم بابتسامة هادئة ثم القاها فى النار وهو يردد :

ـ حسنا ، لقد وصلنا ، سترون ما يسركم يا أولادى الصغار .

ولقد توصل جراندية بوسائل مختلفة الى تهدئة الجميع دون أن يدفع لهم فرنكا واحدا . ولقد قال أحد التجار مخاطبا كريسان : ان هذا الرجل يهزأ منا ومنك .

ثم ماليث الجميع أن نسوا مصرع جراندية الباريسى . ولقد تكهن جراندية الريفى بهذه النتيجة عندما كان يقول : ان الوقت شيطان خبيث .

وفى نهاية الشهر التاسع من السنة الرابعة أخذ جراندية يتمنص من الدائنين بقوله ان ابن أخيه قد أصبح من الاغنياء فى الهند . وهو سيسارع بالرجوع ليدفع ديون أبيه باجمعها . وعندما ارتفعت أسهم محل جراندية الباريسى ، وكان أخوه قد اشترى قسما كبيرا منها ، ما لبث هذا الاخير أن باع حصته (سرا بالطبع) وخرج من هذه الصفقة بما يقرب من أربعمائة فرنك ذهبا .

* * *

فى يوم من أيام الآحاد أخذت يوجينى تذكار ابن عمها الذهبى وراحت تستجلى صورته من خلال تقاطيع صورتى والديه واد بها تفاجأ بأمهاء التى ماليثت أن اطلعت على سر المبادلة الرهيبة التى حصلت بين ابنتها وشارل . فهتفت فى هلع : لقد أعطيته اذن كل شىء؟ ماذا يكون موقف أبيك فى عيد الميلاد عندما يطلب

اليك أن تريه ذهبك ؟ .. وظلت الأنثنان طوال النهار تسبحان فى خوف مفيت . وقالت الام واجفة :

ـ لو أطلعتنى على سرك من قبل لكنا عملنا على تفادى الامر بأية طريقة . كنا طلبنا الى السيد كريسان أن يرسل الينا بعض القطع الذهبية . وعلى الرغم من أن أباك يعرف قطعك جيدا فانه كان يمكن ..

ولكن من أين كان يمكننا الحصول على كل المال اللازم لسفر شارل ؟ .

ـ كنت أعطيه من مالى الخاص ...

ـ لم يعد لدينا متسع من الوقت ، وعلينا أن نذهب غدا ونلتمس لابى عيدا سعيدا .

ـ ولكن يمكننا يابنيتى أن نطلب مساعدة كريسوه .

ـ لا لا .. والا جعلونى تحت رحمتهم ومنتهم . انى احسنت عملا . ولست نادمة على ماقمت به ولتكن مشيئة الله .

ومنع الخوف المسيطر على يوجينى أمها من الذهاب فى صباح اليوم التالى الى غرفة جراندية وتحيته تحية العيد المعتادة فى مثل هذه المناسبات . وكان الثلج يغطى السطح والبرد قارس . وماليثت السيدة جراندية أن خاطبت زوجها عند سماعها لاول حركة بدرت منه بهذه الكلمات :

قل لنانون ، يا جراندية ، أن تحمل قليلا من النار الى غرفتى . ان البرد قارس ، وأنا فى سن احتاج معها الى قليل من العناية . وفوق ذلك ، فان يوجينى ستأتى الى هنا لارتداء ثيابها .. وقد تتعرض لبعض الامراض اذا ارتدت ثيابها فى غرفتها الباردة . ثم سنذهب بعدها لتتمنى لك عيدا سعيدا .. تا .. تا .. ماهذا اللسان؟ اهكذا تبدئين العام الجديد ايتها السيدة ؟ انك لم تتكلمى فى حياتك بهذه الكثرة .

ـ ثم مرت فترة من الصمت اعقبها الرجل بقوله وقد ازعجه اقتراح امراته :

ـ ساعمل كما اشرت أيتها السيدة . انت حقيقة امراة صالحة ، وانا لااريد ان يحدث لك شيء في هذا السن .

ـ يبدو أنك مسرور في هذا الصباح ياسيدي .

ـ انا مسرور دائما .

ثم قال الرجل وهو يدخل غرفه امراته بثيابه الكاملة . نعم ان الطقس شديد البرودة وسنفطر فطورا جيدا يامرأتي لقد ارسل لنا كريسان فطائر محشوة باللحم وسـأذهب لاحملها من عربة البريد . ويمكن ان يكون قد ضم اليها قطعة ذهبية من نوع « النابوليون » ليوجيني .

ثم اردف هامسا : لقد كان لدى انا أيضا ذهب ، ولكن الاعمال اجبرتني على استبداله بنقود من الورق . يمكن أن اقول هذا لك أنت فقط .

ولكي يحتفل بالعيد على طريقته الخاصة احتضن امراته وقبلها في جبينها .

وصرخت الام لابنتها بعد ذهاب زوجها : ان مزاج والدك هادىء في هذا الصباح وسنستفيد من هذا . مثلي دور المقرورة

ونزل جرانديه وهو يفكر في استبدال دراهمه بليرات ذهبية . وفي لحظة دخوله الغرفة ، قامت المرأتان وتمنتا له عيدا سعيدا وسنة حافلة بالهناءة فقال يحدث يوجيني :

ـ ان كل تعبي من أجل راحتك ، اتلاحظين هذا لاغاية لي سوى اسعادك . ويلزمنا كثير من المال لنكون سعداء . حتى هذا «النابوليون» يا للشيطان لقد فرغ هذا البيت من

الذهب ولم يبق فيه سوى جواهرك . هيا احضري قطعة الذهبية لامتع ناظري برؤيتها .

فقالت الفتاة وهي ترتجف : ان الطقس بارد جدا لنفطر الآن .

ـ بعد الفطور اذن . ان رؤية الذهب تساعدنا على الهضم . اما كريسان فرجل طيب وانا مسرور منه . كلي يا امراتي العزيزة .

ـ انا لست جائعة . انني مريضة .

وكان انتظار الموت أهون على يوجيني وأمها من انتظار الساعات التي ستتلو هذا الفطور الرهيب وعاد الرجل يقول :

ـ احملي كل هذه الاشياء . ولكن دعي عنك هذه المائدة . انها تساعدنا على تفقد كنزك اللطيف الصغير يا يوجيني الصغيرة ؟ .. انك تملكين ستة آلاف فرنك تنقص فرنكا واحدا ، اذا اضفنا « النابوليون الجديد » . وساعطيك هذا الفرنك كي تتم القيمة لانني أريد أن تعطيني ذهبك يابنيتي .. لم أعد أملك ذهبا .. لقد كان لدي في الماضي . أما الآن .. فستعطينني ستة آلاف فرنك ذهبا ، واعدك ، عندما أزوجك ، وسيكون هذا قريبا ، ان أقدم لك زوجا غنيا يعطيك من جميع انواع القطع الذهبية .

فاجابت الفتاة خائفة : انني لم اعد أملك ذهبا .

ـ لم يبق لديك ذهب ؟..

ووقف الرجل فجأة كحصان انطلقت بالقرب من أذنه ستة مدافع !

ـ لا لم يبق لدى ذهب .

ـ انت مخطئة يا يوجيني .

ـ كلا . كلا

اقسم انني .. وعندما كان جراندييه يتلفظ بهذا القسم كانت أخشاب البيت تهتز في مواضيعها .

وهمست تانون : يالاهي ، لقد أصيبت السيدة جراندييه شديدة الاصفرار ! وعاد الاب يزمجر :

ـ تا .. تا .. تا .. أنتم تتحدثون بهذه البساطة !! ماذا صنعت بقطعك الذهبية يا يوجيني ؟

فاستعطفته يوجيني جانية : والدتي تتألم كثيرا ، ارجوك . لا تقتلها .

ارتعب جراندييه من الاصفرار الشديد الذي يملأ وجه امرأته التي قالت: تعالي يا تانون ساعديني على الصعود. انني أموت .. واستندت الام على ذراعي تانون ويوجيني ، اللتين لم تستطيعا الوصول بها الى غرفتها الا بعد كثير من العناء والجهد ، لانها كانت ترتجف ارتجاف الورقة في مهب الرياح العاتية .. بينما بقي جراندييه وحيدا ولكنه ما لبث أن صعد بضع درجات على السلم وصرخ مخاطبا يوجيني : عندما ترقد والدتك اهبطي الي ..

ـ نعم يا أبي .

ولم تتأخر يوجيني عن النزول بعد أن طمأنت والدتها فابتدرها أبوها قائلا :

ـ أريد أن أعرف الآن اين كنزك يافتاتي ؟

ـ اذا كنت يا أبي تقدم الي شيئا لا أستطيع التصرف فيه فارجوك أن تحبس عني كرمك

ثم اعطته (الشايلوك) الذي أخذه منه منذ قليل فقبله ووضعه بلهفة في جيبه ثم قال :

ـ لن أعطيك اي شيء آخر . أنت اذن تكرهين أباك !

أنت لا تثقين به ؟! أنت اذن لا تعرفين ما هو الاب .. ان لم يكن كل شيء لك فهو لا شيء .. اين ذهبك ؟

ـ انا احبك واحترمك يا والدي برغم غضبك ، ولكنني أريد انم القيت نظرك الى انني بلغت الثانية والعشرين من عمري . وقد تصرفت في مالي كما اردت كما اعتقد انني وضعته في حرز حريز

ـ اين ؟ ؟ ؟

ـ هذا سري الدفين ـ الا اسرار لك ؟

ـ ألست رئيس العائلة ؟

ـ وهذا سري الخاص !

ـ انه سر سخيف هذا الذي تخفينه عن ابيك ايتها الآنسة

ـ بالعكس ، انه عمل ممتاز ولكنني لا أستطيع البوح به لأبي

ـ قولي على الاقل لمن أعطيت ذهبك ؟

فاشارت يوجيني برأسها رافضة

ـ انه كان معك في يوم عيدك .. أليس كذلك ؟.

ولكن يوجيني التي ورثت دهاء ابيها أعادت نفس اشارتها الاولى

ـ اذا لم أر في حياتي عنادا شبيها بهذا العناد ولا سرقة شبيهة بهذه السرقة !! كيف ؟ هل سألك أحد هنا وفي بيتي الخاص مالك ولا أعرف من هو ؟. ربما يجوز للفتيات الشريفات أن يهبن سرا بعض الاشياء البسيطة وهذا يحدث في بيوت الامراء والنبلاء ويحدث في بيوت أمثالنا من الاغنياء البسطاء

ولكن اعطاء الذهب .. لن أعطيت ذهبك ؟!

ولكن ثم تحر يوجينى جوابا فصاح كالمجنون : من رأى فتاة كهذه !! أنا واثق ؟

ـ ألست حرة التصرف فى مالى الخاص ؟

ـ ولكنك لا تزالين صغيرة !!

ـ بل قد بلغت سن الرشد .

صعق جرانديه لنطق ابنته ، فوقف مبهوتا ثم ما لبثت الشتائم أن أخذت تتدفق من شفتيه :

أنزل عليك اللعنة أيتها الفتاة الشقية . لقد عرفت شدة حبى لك واستغللتها أسوأ استغلال انك تقتلين أبك !! أقسم انك أعطيت ذهبك لابن عمك العاطل . أنا لا أستطيع حرمانك من ارثى ولكننى ألعنك أنت وابن عمك . ان هذا العمل لن يمر عليك أى خير . أتسمعين ؟ ان كنت قد اعطيت شارل .. ولكن هذا غير ممكن . ماذا ؟ هل سرقنى هذا الولد الفاسد ؟

وألقى النظر فى ابنته التى ظلت صامتة .

فانفجر صائحا :

ـ ولكنك على الاقل لم تعطيه ذهبك دون مقابل ؟؟

فنظرت الى أبيها نظرة هزء اربكته دون أن تنطق بكلمة

فقال :

ـ انك ابنتى يا يوجينى ، وتعيشين معى . ورجال الدين يأمرونك بطاعتى انك تهبيننى فى اقدس شىء لدى اذهبى الى غرفتك وابقى هناك ريثما اسمح لك بالخروج وسنحمل لك غدا كل صباح شيئا من الخبز والماء . هل تسمعيننى ؟! عجلى بالذهاب .

اجهشت يوجينى بالبكاء ثم اسرعت الى قرب أمها التى قالت لها : لا تحزنى يا ابنتى العزيزة فان أباك سيهدأ بعد قليل .

ولكن جرانديه صرخ وهو يدخل الغرفة : هل حقيقة انى وإياك انجبنا فتاة غير مطيعة كهذه الفتاة ؟ هيا الى السجن أيتها الآنسة .. الى السجن .

فقالت السيدة جرانديه وقد واجهت زوجها بوجه تلهبه الحمى : أتريد أن تقتلنى ؟

ـ خذيها واغربا عن وجهى كلتاكما .. غادرا هذا البيت . يالرعود والعواصف ! أين اختفى الذهب ؟!

فوقفت يوجينى ثم رمت أباها بنظرة رعو قاتلة ثم دخلت غرفتها فقام واقفلها ثم وضع المفتاح فى جيبه .ولما جلس بالقرب من امرأته قال لها : انها دون شك أعطت مالها لذلك الفاسد شارل .

وكانت السيدة جرانديه قد استمدت من الحوادث التى مرت ومن الخطر الذى يهدد ابنتها قوة خولتها الظهور بمظهر البرود وعدم التأثر فقالت وهى تنظر ناحية الشارع : انا لا اعرف شيئا من كل ما ذكرت . ان ابنتك أيها السيد بريئة كبراءة الطفل المولود . وهى تحبك كثيرا وكان من الممكن أن توفر على هذا الازعاج وأنا فى هذه الحالة النصحية فارجوك أن تقلع عن عزمك هذا وأن تدع لفتاتك حريتها .

ـ لن أراها ولن أكلمها وستبقى فى محبسها مادمت غير راض عنها .. باللشيطان ! ألا يحق لرب البيت أن يطلع على ما يجرى فيه ؟ ..

ـ سيدى ان يوجينى وحيدتنا

ـ اذا كنت ترغبين فى اعادة السلام الى البيت فاجعلى

ابنتك تعترف لك .. وأنا لن أعاقبها مهما تكن قد صنعت بذهبها .

– حسنا ! ولكن هل لك عليها من السلطة أكثر مما لك عليها انت ؟ انها لم تقل لى شيئا وعبثا حاولت استجوابها ..

– تا .. تا . تا . انك دون شك تستطيعين كشف أسرارها ..

– اذا كنت تريد قتلى فما عليك الا أن تثابر على الكلام بهذه الطريقة .. أنت مخطىء تجاه ابنتك واطلتها على صواب فيما فعلت وأنا اعيدها لا تفعل الا حسنا ..

– انني راحل عن هذا البيت .. ان امرأتي وفتاتي تقدمان لى ألطف الهدايا فى هذا العيد المبارك ! باللسخرية !

وعندما أقفل باب الشارع أسرعت يوجينى وارتمت فى صدر أمها وهي تردد : لقد اظهرت شجاعة خارقة فى سبيل الدفاع عن ابنتك يا أماه ..

– أرأيت الى أين قادتنا أعمال التسرع ؟ لقد أجبرتنى على الكذب .

– سأصل الى الله كى يعاقبنى وحدى ..

وقالت نانون : هل صحيح أن الآنسة يوجينى ستكون مرغمة بقية أيامها على أن تعيش على الخبز والماء ؟ .

– صه يا نانون ..

– انني لن أتقيد بشيء ، ستترين ..

– ٦ –

جاء آل كريسان وآل كريسان لزيارة جراندية وعجبوا لعدم رؤيتهم ربة البيت وابنتها وقد برر جراندية غيابهما بقوله : ان امرأتي منحرفة المزاج وفتاتنا تلازمها ..

وبعد مضي ساعة فى محادثات تافهة رحبت السيدة

كريسان التى كانت قد صعدت لزيارة السيدة جراندية وأجابت بعد أن سألها الجميع بلهفة عن حالة المريضة : انها فى حالة خطرة وأنا أخشى عليها انها فى سن تستلزم جميع الاحتياطات أيها الاب جراندية ..

فأجاب الرجل : سنرى .

ثم ما لبث الزائرون أن استأذنوا وانصرفوا .. فقالت السيدة كريسان عندما أصبحوا فى الخارج :

– لقد حدث دون شك شيء جديد فى بيت جراندية .. فالسيدة فى حالة من المرض شديدة ولكنها لا تترك شيئا عن درجة مرضها وخطورته . أما يوجينى فانها تحمل عينى انسان بكى طويلا .

* * *

وبعد أن نام جراندية ذهبت نانون بخطى الثعلب الى غرفة يوجينى وهى تحمل لها فخذا كبيرة من اللحم وتقول : خذى يا آنستى .. ان (كورنولار) قد أرسل لى أرنبا بريا .. وهذه الفخذ تكفيك أكثر من ثمانية أيام .

– آه يا نانون الطيبة ..

– لقد صنعته وطبخته خفية عن أبيك اذ اشتريت جميع لوازمى من مالى الخاص .

ثم عربت الخادمة عندما خيل اليها أنها اشتمت رائحة جراندية .

* * *

فى خلال بضعة شهور كان جراندية يزور امرأته فى ساعات متفاوتة من النهار ، لم يكن فى أثنائها يتلفظ باسم ابنته او يأتى على ذكرها .. أما السيدة فلم تغادر غرفتها وكانت حالتها تزداد سوءا يوما بعد يوم .. لم يكن هناك شيء يستطيع ان يلين ارادة جراندية الصلبة .. فهو لم يغير

شيئا من قواعد ذهابه وايابه ولكنه لم يعد يتلعثم قط ..
وقد زادته قساوته فى الاعمال وان اصبح بخطىء فى جمع بعض الاعداد .

ـ ماذا حدث فى بيت جراندية .

سؤال طال ترديده فى أنحاء البلدة ..

وكانت يوجينى تذهب الى الكنيسة كعادتها بقيادة نانون وكانت تجيب السيدة كريسان اجابات مقتضبة اذا ما القت عليها بعض الاسئلة ..

ولقد بات من المستحيل بعد مضى شهرين ، كتم خبر عزلة يوجينى من آل كريشوه أو عن ال كريسان .. جاء وقت لم تستطع الاعتذارات المتوالية تبرر غيابها ..

وسرعان ماسرى فى البلدة ، دون أن يعرف كاشف السر ؛ ان يوجينى مسجونة فى غرفتها ، بأمر أبيها ؛ منذ رأس السنة الماضية ولا يسمح لها بغير الماء والخبز وانها محرومة من التدفئة ، وأن نانون تخصها ببعض الاشياء تحملها لها فى جوف الليل .. وكان يتردد أيضا انه لم يكن يسمح للفتاة أن ترى أو تعنى بأمها الا فى غياب أبيها !

واذ ذاك أخذ الاهلون يحكمون على جراندية احكاما قاسية ، واستعادوا فى أذهانهم صفقاته الماضية واضرارها بالبلدة فزادت سمعته سوءا على سوء .. فكان كل انسان عند مروره به يشير اليه ويتمتم بألفاظ غير مفهومة .

أما يوجينى فقد كان لها من طهارتها وتدينها قوة جعلتها تحتمل بهدوء ذلك الانتقام الابوى . ولكن ألما عميقا آخر كان يسيطر على آلامها ويفوقها جميعا فان امها كانت تدنو من القبر بسرعة تضارع سرعة القضاء الوقت ، وكانت يوجينى كثيرا ماتتهم نفسها بانها بأنهاسبب مرض أمها الخطر البطىء فيزداد المها ، ولكن أمها نفسها كانت تسرع باقصاء

عنه الاوهام من مخيلتها وفى كل صباح عندما يخرج الاب ، كانت يوجينى تسارع لتجثو بالقرب من سرير امها حيث تحمل لها نانون العصور ، ولكنها كثيرا ما رفضته باشارة من يدها مكتفية بارسال سيل من الدموع الصامتة التى كانت تجتهد فى اخفائها كلما همت والدتها بالتفات نحوها ..

وعندما كان جراندية يأتى الى غرفة امراته ويسألها عن صحتها بألفة العبارات كانت تجيبه بقوة واطمئنان متخذة من دنوها من القبر صلابة وشجاعة فتقول :

ـ اشكرك على اعتنائك بى ، ولكن اذا كنت تريد ان تسدى الى أجل الخدمات فى ساعتى الاخيرة فما عليك الا أن تصفح عن ابنتنا .. وكان جراندية يتذرع بالصمت عند هذا الرجاء كما يتذرع السائر فى الظل الشديد بأول سقف يصادفه فيختفى تحته ، وكان نسيان ابنته طبع فى نفسه فلم يكن يتأثر مطلقا بالدموع التى تنسكب من عينين طاهرتين على وجه يضارع شحوبه بياض الشمس .

وساءت حالة السيدة جراندية وكثيرا بعد ان اخفقت فى اعادة المياه الى مجاريها بين الوالد وابنته فلم تر بدا من احاطة آل كريشوه بالامر . واحتق الحاكم الخبر فصاح :

ـ يا الهى : ان حجز فتاة فى الثالثة والعشرين من عمرها وحرمانها من التغذية بغير الماء والخبز جريمة لا تغتفر بل ويعاقب عليها بشدة وتستطيع الانسة جراندية ان ...

وقال كاتب العدل يقاطعه :

ـ دعنا من احاديثك القضائية يا عزيزى ... اطمئنى يا سيدتى الى التى سأرجع لك ابنتك منذ الغد .

وخرجت يوجينى عندما سمعتهم يتكلمون عنها فقالت وهى تتقدم بخطوات مليئة بالاعتداد .

ـ ارجوكم أن لا تهتموا بهذه القضية فان أبى سيد

فى بيته ومادمت عنده يجب على تنفيذ اوامره . ان تصرفاته عنا لا تعنى الناس فى قليل او كثير فهو المسؤول أمام الله وحده وانني لأطلب بحق صداقتكم الصمت التام عن هذه القضية وانني لأثق بحسن نيتكم واشكركم عليها ويزداد شكرى لو عملتم على اسكات الاصوات التى تسرى فى البلدة والتى اطلقت عليها صدفة عن غير عمد

فتأثر كريشوه بجمالها الشاحب وقال :

ـ خير وسيلة لاسكات الناس هى رؤيتهم لك حرة .

واردفت والدتها قائلة :

ـ دعى السيد كريشوه يتصرف فى هذه القضية فهو أدرى الناس بطبـــاع والدك واذا كنت تريدين أن تجعليني سعيدة فى أواخر أيامى فيجب أن يعود الصفاء بينك وبين ولى نعمتك .

* * *

كان السيد جراندييه فى صباح اليوم التالى يتنزه فى بستانه الصغير وهذه عادة اتخذها منذ عزلة يوجينى .

وكثيرا ما جلس على المقعد الصغير ويوجينى تسارقه النظر من خلال النافذة وتتأمل صورته وعندما يعود تجلس بالقرب من النافذة وتلقى نظرات ساهمة على أزهار البستان النضرة .

وجاء السيد كريشوه فى ساعة مبكرة ليقابل جراندييه الذى كان جالسا على المقعد الصغير وابتدره هذا قائلا :

ـ ماهى الخدمة التى يمكن تأديتها لك أيهـــا المعلم كريشوه ؟

ـ جئت أحادثك عن الاعمال .

ـ آه .. آه . هل لديك بعض الذهب لبيعه لى ؟

ـ لا لا .. ان المسألة لا تتعلق بمال انها تتعلق بابنتك

يوجينى فان الجميع يتحدثون عنك وعنها ؟

ـ وماذا يعلمهم ؟ ان الفحام سيد فى بيته !

ـ أن الفحام حر فى ان يقتل نفسه وفى أن يرمى ماله من النافذة .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ فلا تنس أن امرأتك شديدة المرض يا صديقى وأنه يجب أن تستشير الطبيب فهى فى خطر الموت واذا توفيت دون ان يعنى بها سببت لك بعض المتاعب .

ـ عندما يدخل بيتك هؤلاء الاطباء لاول مرة يلازمونك ملازمة الظل ولا يكتفون بزيارتك عدة مرات فى اليوم الواحد

ـ ليس هذا الذى قادنى اليك . فهناك مسألة اشد خطورة ، أنت طبعا لاتريد ان تقتل امرأتك فهى كثيرة الفائدة ولكن لا تنس أن أراضيكما مشتركة وانك اذا ازعجت ابنتك فانها بعد موت أمها ، ستكون وريثتها الوحيدة وربما طالبتك بنصيبها .

ـ نزلت هذه الكلمات نزول الصاعقة على قلب جراندييه الذى لم يحسب حسابا لهذه الخاتمة المحتملة واستطرد كريشوه يقول :

ـ وهكذا أنصحك بمعاملتها بكل لطف تستطيعه .

ـ ولكن أتدرى ماذا فعلت الفتاة ؟

فسأله كريشوه الذى كان شديد الفضول لمعرفة هذا السر :

ـ ماذا فعلت ؟

ـ لقد تصرفت فى ذهبها .

ـ أكان هذا الذهب ملكا خالصا لها ؟

ـ أوه ، انهم كلهم يرددون نفس العبارة .

ـ أتريد من أجل مبلغ تافه أن تخسر المبالغ الطائلة ؟

ـ آه ! اتسمي ستة آلاف فرنك من الذهب مبلغا تافها؟
ـ ايه يا صديقي العزيز . لا تعرف كم تكلفك اجراءات القسمة علاوة على الاراضي التي ستتقدمها .
ـ ماذا ؟
ـ ثلاثمائة واربعمائة الف فرنك تقريبا ولكن لو اتفقنا
ـ آه أقسم يابي انني سأفكر في هذا يا كريشوه .
وبعد فترة من الصمت الرهيب او من الحشرجة على الاصح نظر جراندية الى صديقه ثم قال :
ان الحياة شاقة .. انها ملآى بالآلام .. أقسم لك بشرفك ان ما تقوله هو الحق وانه على أسس قانونية ! دائني على الاسس .. ارجوك .. دائني عليها ..
ـ يا صديقي المسكين الا تظنني اعرف بسائط وظيفتي
ـ اذن سأسرق وسأقتل بيد ابنتي !!
ـ انها ثروت أمها .
ـ فائدة الاولاد اذن ؟ آه يا امراتي ! انها مع هذا قوية البناء .
ـ لن تعيش اكثر من شهر آخر .
فضرب صانع البراميل جبهته بيده وأخذ يذرع الارض جيئة وذهابا ثم صاح :
ـ ما العمل ؟
ـ يمكن أن تتنازل يوجيني عن ميراثها ولكن عليك أن لا تفسو عليها وان كان ما أقوله الآن ضد مصلحتي .
ـ سنرى ، سنرى ، لندع هذا الموضوع الآن . هل لديك ذهب ؟
ـ لا ، ولكنني املك بضع ليرات سأعطيها لك .. أصفح عن يوجيني ياعزيزي فان كل أهالي سومور يهتمون بالحادث .
ـ ويل للئام !

وبعد أن ذهب كريشوه كان جراندية شديد الاضطراب ولم يكن في مقدوره أن يبقى وحيدا ، فصعد الى امرأته يقول :
ـ تستطيعين ياعزيزتي أن تقضي نهارك مع ابنتك . انني ذاهب الى فرودانون .
يجب أن تفرحا معا ، فان اليوم هو عيد زفافنا . خذي هذه الليرات الستة واصرفيها على ما يسر كما اذ يجب أن يعود الصفاء ويحل الفرح .
ثم أخذ رأس امرأته وقبل جبهتها مغمغما :
ـ أيتها المرأة الصالحة ! لقد تحسنت صحتك . اليس كذلك ؟
ـ كلا .. مادامت ابنتنا محجوزة وحيدة .
ـ تا .. تا .. تا .. سننظر في هذا
فصاحت الام يستخفها الفرح :
ـ يالعدل السماء ! تعالى يايوجيني واحتضني اباك ، لقد عفا عنك .
ولكن الرجل كان قد اختفى وأنانيته الشديدة تسيطر على جميع افكاره وعواطفه ثم عاد الرجل بخطوات الذئب الى غرفة امرأته وكانت يوجيني قد حملت تذكار شارل الذهبي وصعدت به الى قرب أمها وراحت تتأمل تقاطيع الفتى المرحة من خلال صورة والديه .
ـ ولما لاحظت السيدة جراندية النظرة التي القاها زوجها على التذكار في يد ابنتها قرأت في عينيه الجشع الى الذهب ورأته يقفز ناحية الفتاة كما يقفز النمر على ولد غارق في النوم ! ثم يخطفه صائحا :
ـ ما هذا ؟ هذا ذهب كثير !! آه .. آه .. لقد اعطاك شارل هذا بدلا من قطعك الجميلة ؟
لماذا لم تطلعيني على الامر ؟ انها عملية ممتازة يابنيتي !

انك ابنتي حقيقة وهانذا المس نفسك المجردة مرة أخرى .
اهذا الذهب يخص شارل ؟

ـ نعم يا ابي ولكنه ليس لي وانما امانة مقدسة

ـ تا .. تا .. تا ! انه استحوذ على ثروتك ويجب عليك أن تعودي الى امتلاك كنز آخر

ـ أبي ! !

وأراد الرجل ان يأخذ سكينا ليفصل القطع الذهبية . فاسرعت يوجيني لالتقاطها . ولكن صانع البراميل ، نحى فتاته بدفعة من ذراعه جعلتها تسقط على سرير امها وصرخت الام وهي تنتحب في سريرها :

ـ سيدي ! سيدي !

وصرخت يوجيني وهي تجثو على ركبتيها : استحلفك بجريح الجمعيين وبالعذراء وبالسيد المسيح الا تلمس هذا الشيء . ان هذه العبة لاتخصك كما انها لاتخصني . انها تخص قريبا مسكينا اعطاها لي لاحتفظ له بها ، ويجب ان أعيدها له سليمة .

وصرخت بصوت مروع جعل نانون تسارع بالصعود . ثم فقرت الفتاة واخذت سكينا رانه تحت نظرها فسألها والدها :

ـ حسنا ! ! ماذا تعنين ؟

ـ اذا لمس سكينك قطعة صغيرة من هذا الاثر ، فانني لا اتردد في بقر بطني بهذا السكين الذي بيدي . لقد جعلت امي تمرض مرضا خطيرا ، والآن ستقتل فمانك

ـ هل انتي جادة في قولك يا يوجيني ؟

ـ نعم .

وصرخت نانون :

ـ انها جديرة أن تصنع ماتقول ، فكن حكيما لاول مرة

في حياتك

فاخذ جراندية يردد النظر لحظات قصيرة بين الذهب وابنته ، وبين ابنته والذهب ، فلم تلبث السيدة جراندية ان اغمي عليها واندفعت نانون تصيح في وجهه :

ـ انظر ياسيدي .. ان امرأتك تموت .

ـ خذي يا ابنتي ، يجب ان لاتحزني من اجل علبة بسيطة ! خذيها اذن

ثم القى العلبة على السرير وعاد يقول :

ـ أما انت يانانون فاسرعي ونادي الطبيب بوجران .

ثم مضى يقبل يد امرأته :

ـ حسنا ايتها الام ، انظري انني احتضن يوجيني انها تحب ابن عمها وستزف اليه اذا كانت تريد ، وسنحتفظ له بتذكاره الصغير . حسنا .. تحركي الآن ... انك ستكونين أسعد امرأة في كل سومور .

فتمتمت : اتعامل امرأتك وابنتك هذه المعاملة ؟

ـ اعاهدك الا ارتكب هذا الخطأ مرة أخرى . اقسم الا اعاود هذا العمل . سترين يا امرأتي المسكينة ..

ثم ذهب الى مكتبه ورجع حاملا حفنة من الذهب ، القاها على السرير قائلا :

ـ خذي يايوجيني كل هذا لكما .. تشجعي يامرأتي ولا تحرمي نفسك شيئا .. لا انت ولا يوجيني .. أليس كذلك ! ؟

فتبادلت السيدة جراندية وابنتها نظرات مشدوهة ثم مالبثت يوجيني ان قالت :

ـ خذ دراهمك ياوالدي فنحن لانحتاج الا الى رضاك .

ـ حسنا ، هذا حسن

قال هذا وهو يرجع الدراهم الى جيبه .

ـ لنعش بصفاء كأحسن الاصدقاء . لننزل جميعا الى (الصالة) لنتغدى سويا ولنلعب بعدها لعبا مسليا .

فاجابت المريضة بصوت واهن :

ـ كنت اريد أن أنفذ رغبتك ، ولكني للاسف لا استطيع النهوض .

ـ ياللام المسكينة ! أنت لاتعرفين كم احبك ! وانت ايضا يا ابنتي !

ثم احتضنها وقبلها وعاد يقول :

ـ اوه ، اوه ! كم هو جميل أن يحتضن الانسان ابنته بعد ان يكون قد اختلف معها ، انظري ابنتها لم كيف انني وبرجيني نؤلف شخصا واحدا . اذهبي واحتضني عليتك يا ابنتي .. اذهبي ولا تخشي فلن نرى منى الا ما يسرك ويسعدك .

وقدم الدكتور (برجران) أشهر طبيب في سومور ، وبعد ان انتهى من فحص المريضة همس في اذن جرانديه قائلا : أن امرأتك في حالة خطرة ، ولكن راحة الفكر والاعتناء الدائم يمكن ان يطيلا حياتها الى آخر اخريف .

ـ ايكلف هذا غاليا ؟ اتحتاج الى ادوية كثيرة ؟

ـ يلزمها قليل من الادوية وكثير من الاعتناء .

ـ انك رجل شريف تعال وعد امرأتي كلما لزم الامر ، انقذ امرأتي الطيبة ، انني احبها كثيرا دون ان يلاحظ احد هذه المحبة لان كل الاشياء تجري عندنا في هدوء وصمت ، انني شديد الحزن . لقد وجد الحزن على منذ وفاة المرحوم اخي الذي انفقت في سبيله المبالغ الطائلة في باريس ، وداعا ياسيدي اذا كان مستطاعا انقاذ امرأتي فانقذها ، ولو كلف هذا الانقاذ هالة أو مائتي فرنك

وبالرغم من العناية التي كانت محاطة بها المريضة

وبالرغم من محبة ابنتها وبالرغم من تفيد زوجها زادي رغباتها ، كانت السيدة جرانديه سائرة بسرعة نحو القبر ، لقد كانت أشد اصفرارا من ورق الاشجار المتساقط . وأخيرا انطفأت شمعة حياتها دون أن يصدر من شفتيها الذابلتين ادنى احتجاج .. ياللحمل الوديع ! لقد ذهبت الى السماء دون أن تأسف الا على قلة كبدها المسكينة وحيدة وسط عالم انانى يريد ان يسلبها ثروتها .

ـ ٧ ـ

شعرت برجيني أن الحوادث تمكن عراها في هذا البيت حيث نشأت وترعرعت وحيث ماتت والدتها وستموت هي ، انها لم تكن تستطيع ان ترى آثار تلك الوالدة الحنون دون ان تذرف الدموع الغزيرة . وخيل اليها انها كانت تجهل جهلا تاما طيبة أبيها ومحبته بها ، ولامت نفسها على هذا الجهل ! فلقد اخذ يعاملها ارق معاملة ويأخذ بيدها في روحاته وغدواته ، حتى انه كان يرتجف عندما يتحدث اليها . وبعد انتهاء مراسيم الحداد واغلقت الابواب قال لها في حضرة كريشوه :

ـ ها قد أصبحت وريثة امك وعندك بعض نقط يجب علينا ايضاحها ؟

ـ هل من الضروري ان نهتم اليوم بهذا الامر يا ابي ؟

ـ نعم .. نعم يا ابنتي ، انني لا أستطيع ان أعيش بلا استقرار ولا اعتقد انك ستخالفين لي شيئا من المتاعب

ـ أوه يا أبي

ـ حسنا يجب ان نرتب كل هذا

ـ ماذا تريد مني ان اصنع ؟

ـ ولكن هذا لايعنيني يا ابنتي قل لها يامسيو كريشوه
فاخذ الضيف يشرح لها غرض والدها قائلا :
ـ ان اباك لا يريد ان يقسم الارث ولا ان يبيع نصيبه ولا ان يدفع المبالغ الطائلة في سبيل اتمام هاتين العمليتين .
ـ ولكن ماذا يجب علي ان أفعل ؟ ..
ـ يجب ان توقعي هذه الورقه التي تعترفين فيها انك تتنازلين عن ارثك لابيك الذي يصبح المالك الوحيد للاراضي التي ...
ـ انني لا افهم شيئا كثيرا مما تقول .. اعطني الورقة لاوقعها .
فردد جراندييه النظر بين الورقة وابنته ، وبين ابنته والورقة . واجتاحته عواطف جامحة جعلت جبينه يتندى بالعرق .
ـ أرجو يا بنيتي بدلا من ان توقعي هذا الاتفاق الذي يكلف تسجيله دراهم كثيرة ان تعترفي في المحكمة انك تنازلت عن ميراث امك وانك توكلين لي جميع أمورك وسأعطيك كل شهر مبلغ مائة فرنك وهكذا تستطيعين مؤازرة كثير من الاعمال الخيرية .. ماذا أيك ؟
ـ سأفعل جميع ما يسرك يا ابي .
فقال كريشوه : من واجبي يا آنسة أن أنبهك الى انك تجردين نفسك .
ـ ماذا يهمني هذا الامر ؟
وصاح جراندييه وهو يصافح فتاته بحرارة: يوجيني . حبيبتي !! أنت لن ترجعي عن كلامك . أنت فتاة شريفة .
ـ أوه يا ابي .
واحتضن جراندييه ابنته بقوة حتى كاد ان يخنقها ثم قال :

ـ انك وحيد الحياة لابيك يا ابنتي ولكنك تعيدين اليه ما أعطاك من قبل ، وبذلك تعادلت حياتنا .. هكذا يجب ان تسوى الاعمال .. انني اباركك .. انك ابنة فاضلة تحب أباها ، افعلي الآن ما بدالك .. الى الغد يا كريشوه .

* * *

وفي ظهر اليوم التالي وقفت يوجيني في المحكمة تقدم وثيقة تنازلها على ميراث امها . وعلى الرغم من التعهد الذي اخذه جراندييه على نفسه لم يقدم شيئا لابنته من المائة فرنك التي كان قد وعد ان يقدمها لها في كل شهر ، وعند ما ذكرته يوجيني بوعده بعد عام وبطريقة لطيفة لم يستطع ان يمنع وجنتيه من الاحمرار ، ثم اسرع الى مكتبه ، ورجع حاملا لفت الجواهر التي كان شارل قد أعطاها له وهو يصيح بهجة الهزء واخنق :
ـ خذي ابنتها الصغيرة اتكفيك هذه الجواهر بدلا من الالف والمائتي فرنك التي استحقت لك ؟
ـ أوه يا أبي .. اصحيح انك تعطيني كل هذا ؟!
ـ سأعطيك مثله في السنة القادمة .
ثم القى اليها ذلك النصيب وقد أسعده ان استطاع كسب ود فتاته بهذه السرعة . ورغم ان الرجل العجوز كان لايزال قويا فانه شعر برغبة ملحة تدفعه الى اطلاع ابنته على أسرار عمله فمرنها في خلال سنتين كاملتين على ترتيب دواخل البيت وكيفية ادارته ثم اطلعها على محتويات كل غرفة . وعند حلول السنة الثالثة كان قد انهى تمرينها على أساليبه التي كان يفرضها عليه بخله ولم يتردد في ان يسلمها مفاتيح بيته ويجعلها سيدة المنزل . ثم مضت

خمس سنوات هون ان يحدث ما يعكر حياة يوجيني وابيها السائرة على وتيرة واحدة ، فكانت نفس الاعمال تتابع وتتردد على مر الساعات

ولما بلغ الثانية والثمانين من عمره أصيب بمرض الكساح الذى ما لبث ان امتد الى كافة أعضائه ولقد قطع الطبيب (برجران) أمله فى نجاته وعندما لاحظت يوجيني انها سوف تصبح وحيدة فى هذا العالم زاد تعلقها بابيها.. ذلك الحبل العاطفى الوحيد الذى يربطها بهذا العالم .

واشتد المرض بالرجل فى صبيحة احد الايام فطلب ان يقاد الى مكان يتوسط المسافة بين موقد غرفته وبين باب مكتبه حيث أودع ذهبه وثروته ثم ظل أياما على هذه العادة وراح يمكث الساعات الطويلة فى هذا الوضع مصغيا لادنى الحركات مرددا طرفه بين باب المكتب المصفح وبين البهو حتى جاء الوقت الذى زرحت فيه همته الجبارة تحت وطأة الامراض فكان بود لو يبقى دائما امام الموقد ليظل مشرفا على مستودع امواله . وعندما كان يستطيع فتح عينيه اللتين كانتا مظهر الحياة الوحيد المتردد فيه كان يديرهما نحو باب غرفة الكنز سائلا ابنته بصوت يشوبه الخوف والارتجاف:

ـ هل المال هو ... موجود ؟

ثم يعود فيقول :

ـ انتبهى للذهب .. ضعى الذهب أمام ناظرى ..

فكانت يوجيني تنشر النيرات الذهبية على مقعد قريب منه لينظر اليها نظرات نهمة .. نظرات طفل تفتحت عيناه لاول مرة على نور الوجود ، وكان يتمتم شاخصا همسه بابتسامة هائلة :

ـ ان هذا يسرني .. ان هذا عظيم !!

وراح المرض يدب دبيبه فى جسم ذلك العجوز ، وراح

يرى بعينيه الطابيتين وبقلبه الكسير انه لن يرث الارض وما عليها كما كان يحسب ويقدر ، فزاد ذلك آلامه وشقوته . وكثيرا ما أخذ يتطلع الى قسمات ابنته الوادعة وأساريرها الساذجة ثم جعل يتساءل :

ـ لماذا لم أنجب ذكرا يحفظ من بعدى هذا الثراث الكبير الذى جمعته شتى الانفس وعرق الجبين ؟ ترى هل سيتزوج يوجيني اول رجل يغرر بسلامة طويتها وتسلمه قيادها وتهبه كل ما تمتلك فيمضى كالشيطان يبعثر ذات اليمين وذات اليسار كل هذا الذهب الذى ضننت به على زوجتى وفلذة كبدى وعلى نفسى ؟! أتراها ستظل بتولا الى أن يعود ابن عمها البارونى الطائش فيخلب لبها بأناقته وعدوبته الزائفة فيسلبها كل ما جمعته طوال العمر ؟ أتراه سيجردها من كل دانق وسنتيم وكأنما أرسلته العناية الالهية لينتقم من ثروتى لمال ابيه ؟!

ـ يا للقدر الساخر !!

ها هو الرجل العاتى يرزح تحت أعباء المرض الثقال وها هى أمانيه تتبدد وتذروها الرياح !

وها هو ذا يترقب الموت وهو الذى ظل يعمل على ان تتنازل له ابنته ووحيدته عن ميراث أمها ! ها هو ذا يوشك أن يغادر هذا العالم بمباهجه ولذاته ! هذه المباهج واللذات التى لم تكن فى ناظره تعدو الاغتباط والنشوة بمراجعة احصاء نقوده فى كل يوم تقريبا ، حتى اذا اطمأن الى أنها زادت وربت ثلج صدره وشعر بأنه أسعد الناس طرا على وجه البسيطة !

وها هو البخيل الشحيح الذى طالما سهر الليالى خشية أن يتسور داره اللصوص ، قد آن له أن يغمض عينيه الى الابد لايعرف العايش بامواله ولايبصر البدر لذهبه الغالى ولايدرى

الى أين ستمضى ثروته التى كان يعتز بها أكثر من اعتزازه بابنته ويحتال على انمائها بمختلف الطرق والاساليب .

وفى حشرجة الموت صاح بابنته :

ـ هاتى الذهب .. ضعيه أمامى .. دعينى أكتحل ببريقه قبل ان يمسح الموت على عينى !

وكان يمد يده الواهنة يتحسس بها نقوده الذهبية ويربت عليها فى لهفة وحسرة وحنان !: وكان يتمتم بما يشبه التعاويذ كأنما يبارك أمواله أو يضرع الى الله ألا تذهب الى الأبد والا ينعم بها سوى ابنته وحدها .

وأخيرا صعدت روحه الى خالقها وهى متمردة على الموت وعلى الحرمان مما تركه البخيل خلفه بعد طول شح وتقتير

ـ ٨ ـ

وجدت يوجينى نفسها بعد وفاة أبيها وحيدة فى هذا العالم ولم يكن هناك سوى شخص واحد تستطيع الاطمئنان الى أنه يفهمها لو تكلمت وهى نانون ، فقد كانت نانون رسول العناية الالهية بالنسبة اليها .. انها لم تكن تعتبرها خادمة بل صديقة مخلصة .. ولقد اطلعت يوجينى على مبلغ ثروتها بوساطة السيد كريشوه وعرفت انها تقدر بنحو سبعة عشر مليونا من الفرنكات .. ولطالما رددت لنفسها : أين ابن عمى الآن ؟ ..

وفى اليوم الذى تسلمت فيه يوجينى الاوراق التى جعلتها وريثة لابيها جلست مع نانون فى البيت الذى كان كل ماضيه يبعث الذكرى الاليمة الى نفسها . وخاطبت الفتاة صديقتها الوحيدة قائلة :

ـ اننا يا نانون وحيدتان فى هذه الدنيا ..

ـ نعم ، للاسف .. ولو كنت أعرف مكان ابن عمك

الجميل لذهبت اليه سيرا على الاقدام .

ـ ان البحر يفصل بيننا يا نانون ...

ـ ولكنه سيعود حتما ولابد انه قد احرز الآن ثروة طائلة

ـ وهل يهمنى المال ؟ أتظنينه يحبنى قدر ما احبه ؟

ـ وهل يراك أحد ولا يحبك يا ابنتى ؟ انك آية فى الطهر والجمال .. ثم أنت ابنة عمه .

ـ وهل يكفى هذا لان يؤثرنى على غادات باريس

ـ ان غادات باريس لا يستهوين الا طائشى الاحلام . ولو أن واحدة منهن اسرت لبه لكان قد خطبها من قبل

وتقمصت لحظات سبحت فى أثنائها يوجينى فى بحر لجى من أحلام اليقظة الهانئة ثم رنت الى نانون باسمة وقالت فى خفر وحياء :

ـ لقد تسللت الى غرفته وقرأت خطابين كان قد كتبهما . وفى احدهما قرأت انه يفصم عهده لاحدى الفتيات ويتحدث عنى .

فتنفست نانون الصعداء عن قلب منقل وهتفت .

ـ أما قلت لك ؟ هذا يؤكد اذن ماقدرته . اطمئنى يا ابنتى الى أنه يحبك والا ما أعطاك أغلى أثر لديه لتحتفظى به وديعة الى أن يعود من رحلته الطويلة . ولا شك انه فتن بجمالك وبحياتنا البسيطة الهادئة وبطهارة نفوسنا الساذجة .

ـ لا أكتمك يا نانون اننى أشم فى كل ليلة ذلك التذكار وأتمثل فيه ابن عمى بوجهه الصبيح وقوامه الممشوق وعينيه الدعجاوين ، فأشعر بالسعادة تملأ قلبى وسط احزانى ووحشتى القاسية .

ـ جففى دموعك ياصغيرتى ، سيعود السيد شارل وسوف تنسين بين ذراعيه كل هم وأسى .

ـ لقد وعدنى ...

ـ ولن يتحرر شاب متلف من الوعد الذى قطعه على نفسه ثم لا تنسى أنك سر سعادته وانه لولاك ما استطاع السفر والسعى والكفاح ٠

وجرت تانون الى النافذة فى خفة الشباب فابتسمت يوجينى ومسحت دموعها وتمتمت سائلة :

ـ أهو انطوان يا تانون ؟

فلم تجب (العجوز) لانها كانت تطل على الحارس انطوان الذى احبته منذ عشر سنوات فى صمت وكتمان ولم تجرؤ على الافضاء اليه بدخيلتها ولم يجسر الرجل بدوره على مكاشفتها بما يعتلج بين جنبيه كأنما كان يخشى أن يبثها هواه فتحدث سيدها بالامر وربما يثور ويفور ويطرده من حراسة املاكه الواسعة ، فلما مات السيد جراندبه راح الحارس يتودد الى تانون ويضارحها هواه جهرا وعلانية وكثيرا ماجاء تحت نافذتها ورفع عقيرته بالغناء كأنما يهيب بها :

ـ ماهو روميو تحت شرفتك ياجولييت !

وكانت (العجوز) تجرى الى النافذة فتبادله تحية بتحية وابتسامة بابتسامة أو تهبط وتطلب اليه أن يحدثها عن الكروم والبساتين فيجيبها بلغة العاشقين المدنهين !! ٠

فى الوقت الذى كانت الوريثة تذرف الدموع فى بيتها انقاتم ٠ لم يكن لاهالى البلدة حديث الا عن السبعة عشر مليونا التى ورثتها ٠٠ وكان أول عمل قامت به يوجينى انها جعلت لتانون دخلا سنويا قدره ١٥٠٠ فرنك ولم تلبث هذه طويلا حتى زفت الى انطوان كورنولار حارس أراضى وأملاك الآنسة جراندبه وكان للسيدة كورنولار ميزات كثيرة فهى على حرمها تبدو فى الاربعين بفضل الحياة الهادئة القانعة التى كانت تحياها كما تنعم بصحة قوية وخدود قانية وبالرغم عن دمامة وجهها كان لها من مظهر السعادة

جانب يأسر أمثال كورنولار ٠ واتخذ كثير من أهالى نواحى مصدنه فى الافواه فراحوا يقولون :

ـ انها جديرة أن تنجب أولادا ٠

ـ انها غنية ولقد عقد كورنولار صفقة رابحة ٠

* * *

وقدمت يوجينى للسيدة كورنولار كثيرا من الهدايا جعلت زوجها يذرف الدمع ويقسم انه مستعد أن يقطع اربا اربا فى سبيلها ٠

وتولت تانون ادارة البيت بعد زواجها ، كما اخذ زوجها يدبر الاملاك ولهذا لم يشعر الفلاحون بوفاة جراندبه خصوصا وان السيد والسيدة كورنولار اتبعا اساليب الرجل الراحل ٠٠

وبلغت يوجينى الثلاثين من سنها دون أن تتذوق شيئا من السعادة ، فقد قضت طفولتها بالقرب من والدة مكبوته العاطفة ، تحمل فى اطوائها الما دفينا ٠٠ ولم يكن الحب الذى تفتح له قلبها لاول مرة الا مصدرا من مصادر شقائها وعذابها لانها وهبته قلبها ولكنه ما لبث أن رحل تاركا شقة كبيرة بينه وبينها ، وهذا الحب الذى لعنه ابوها كلفها حياة أمها وذكريات لا حدود للحزن الذى تبعثه ٠ وظلت يوجينى تتألم ولم يكن المال يعنى شيئا بالنسبة اليها فحياتها كانت مرتكزة على دعامتين : الانجيل والقلب ٠٠ وقد كانا لها بمثابة عالمين بديعين لا تأنف من انتظار حلوليهما ٠

وكان واضحا انها لن تتزوج فى فترة الحداد لان تدينها كان جليا واضحا ولهذا اكتفت عائلة كريشوه السيرة بنصائح القسيس ، باحاطة يوجينى بأدق الرعاية وابلغ الاهتمام ٠٠

فقد كان يحيط بها فى كل مساء جمع من آل كريشوه ، يدبجون لها المدائح ويصوغون لها الاطراء ٠٠

واخذ الحاكم على نفسه أن يظهر بمظهر الشاب المتأنق

رغم بلوغه الاربعين فكان عند زيارته ليوجيني يرتدي ربطة عنق بيضاء زاهية ويحاول ان يجعل احاديثه بعيدة عن اللغة القضائية ويتحبب ليوجيني فيدعوها بعزيزتنا الآنسة .. اما السيدة كريسان فظلت على حالها تغرس الاشواك في طريق آل كريشوه .

* * *

بينما كانت هذه الحوادث تجري في سومور كان شارل يجمع ثروة في الهند ولقد راجت تجارته ، ولكنه مالبث أن لاحظ أن الارباح الوفيرة والعاجلة لا تأتي الا في المتاجرة الخطرة . فرحل الى سواحل أفريقيا مضيفا الى تجارته بالرقيق تجارته بالاشياء المهمة التي كان يتعاطاها عن طريق المبادلة ، وكان يظهر في الاعمال نشاطا يستغرق كل وقته . وما لبث بعد زيارته لكثير من البلاد واختلاطه بكثير من الناس ورؤيته للعادات المتناقضة بين مختلف الامم واطلاعه على الاسس الخلقية المتباينة ... ما لبث أن أصبح جامدا لا يفرق بين الخير والشر ولا بين القبيح والحسن فالجريمة عند امة كانت تعد حسنة عند غيرها والفضيلة في نظر شعب من الشعوب تعد رذيلة في نظر شعب آخر ! وهكذا لم يلبث شارل ان استحال الى انسان جامد مجرد مركل شعور بعيد عن كل عاطفة . لقد باع عبيدا وصينيين وأعشاش عصافير وأولادا وفدائين . وان عادة احتقار حقوق (الجمارك) علمته احتقار حقوق الانسان وهكذا كان يذهب الى (سانتوماس) يشترى باسعار بخسة البضاعة التي يسرقها القرصان ويبيعها بأغلى ثمن في بلاد اخرى !

واذا كانت يوجيني قد رافقت مخيلته في ابتداء أعماله كما ترافق صورة العذراء البحارة الامينين في اسفارهم ، واذا كان قد عزا لدعواتها وحمايتها العاطفية سر نجاح

مشاريعه الاولى ، فان مغامراته في البلدان العديدة ما لبثت أن طردت من رأسه هذه الفكرة الزاهية التي بدأت تفقد جلالها لديه يوما بعد يوم بل لقد تعمى ذكريات الطفل الصغير والعهد الذي قطعه عليه ، ولم يعد يذكر الا البستان الصغير لأن هناك قرت حياته المحفوفة بالمغامرات . ولقد بدا يفكر تفكيرا تاما لعائلته في سومور . لم يكن عمه في نظره الا سارق جواهره وابنته لم تعد تحتل أي مكان في قلبه ، ولم تعدلها اية ذكرى في عواطفه وهذا هو تفسير صمته الطويل عن الكتابة الى يوجيني وما أسرع ما تكدست الاموال في جيوبه ففي سنة ١٨٢٧ رجع الى (بوردو) على الباخرة الجميلة (ماري كارولين) حاملا معه مائة وتسعة عشر الف فرنك .

وكان على الباخرة رجل من الحاشية الملكية المركيز دي بريون ارتكب جنون الزواج من امرأة عصرية شابة ولكي يخفف وطأة مصاريف امرأته كان يريد أن يزوج ابنته دون أن تدفع مهرا من اي رجل موافق مغرم بالالقاب . ولكن السيدة (دي بريون) وزوجها لم يتسن لهما القيام بمهمتهما على الوجه الذي يريدان لشدة دمامة فتاتهما فقد كانت طويلة ضعيفة ذات وجه شبيه بالحشرات ، وشفتاها منفرجتان وأنفها مفرط في الطول يكتسي لونا أحمر قانيا عند انتهاء (حاملته) من الاكل ولكن المركيزة لكي تخفف شيئا من دمامة ابنتها كانت قد فرضت عليها نظاما خاصا للتغذية (ريجيم) وأصبح انفها عرضة لعمليات رياضية وتجميلية جعلته يظهر أقل طولا مما هو حقيقة !! ثم علمتها كيف تبدي قدمها الصغيرة عندما كانت تظهر على انفها آثار الاحمرار ! وهكذا استطاعت ان تجعل منها فتاة أقل دمامة مما قدر لها أن تكون . وكان شارل قد أصبح صديق ال (دي بريون) الصدوق . وكانت العائلة تريد من كل قلبها أن تستحوذ على صهر لمي غنى شارل .

وبدأت الأم تتكلم عن السعادة التي تشعر بها عندما تقدم طابق قصرها الريفي ، في باريس .. لابنتها وصهرها . ولما لم يكن لشارل نبيل (دى بريون) وعدته السيدة بأن تحصل له من شارل العاشر على وثيقة تخول له الانضمام الى عائلة دى بريون وتضمن له ايرادا سنويا قدره ستة آلاف ليرة كما تضمن له لقب (كونت) بعد أن يتزوج ابنتها . وطالما شغل الفتى بما كانت ترديه على سمعه قائلة :

ـ وعندما يصبح ايرادك مائة الف ليرة ، ويصبح لك اسم ، وعائلة ، تستطيع الذهاب الى البلاط ، لانني سأسعى لجعلك من رجال الحاشية وعندها تستطيع أن تستحوذ على الوظيفة التي تريدها ان الملك شارل العاشر يحب كثيرا (دى بريون) وهو رفيق طفولته .

ولقد كان جنون العظمة مسيطرا على شارل طوال الرحلة وكان يعتقد أن مسألة أبيه قد انتهت بتدخل عمه ، فحسب انه سيهبط الى باريس لاول مرة ملكا من ملوك المال والجاه ! وماكان اشد استيائه عندما نعى اليه ان السيد (كريسان) (المتعهد بتصفية أعمال أبيه) قد جاء الى زيارته ثلاث مرات متواليات ولم يجده وهو الان بانتظاره . وعندما استمع اليه بمنتهى البرود أجابه دون أن يفهم كلامه على حقيقته :

ـ ان أعمال أبي غير أعمالي . وأنا أشكرك على المهمة التي بذلتها ياسيدي في سبيل هذا المشروع ولكنني لم أذهب الى أفاصي المعمورة وأجمع مليونين من الفرنكات لابعثرهما كيفما اتفق ولادفعهما لدائني والدي .

ـ واذا اعلن ، في خلال بضعة أيام ، افلاس أبيك ؟

ـ من الان الى بضعة أيام سأدعى الكونت (دى بريون) وعكذا ترى ان هذا الامر لايهمني مطلقا .

* * *

جلست يوجينى على المقعد الصغير فى الحديقة حيث اقسم لها شارل وعاهدها على محبة ابدية لاتزعزعها الاحداث ولا تفصمها الكروب والنكوب ..

وكانت الفتاة المسكينة تستعيد فى ذهنها اطوار اخى مرت بها حياتها الفاترة عندما طرق موزع البريد الباب ثم سلم خطابا لسيدة (كورنولار) . ومضت هذه بدورها تسلم الخطاب ليوجينى التى هتفت :

ـ باريس ! .. هذا منه لقد رجع !

ثم ملأ الاصفرار وجه يوجينى وتركت الكتاب سليما لبضع لحظات

ووقفت دنون بالقرب منها واضعة يدها على خصرها والسرور يكاد يتجسد فى محياها .

ـ اقرئيه يا آنسة .

ـ آه يادنون .. لماذا يرجع الى باريس مع أنه سالرمن سومور ؟

ـ اقرئى ينكشف لك السر .

فضت يوجينى الكتاب بيد مرتجفة فسقط منه تحويل على مصرف « السيد دى كريسان وكوركت سومور » ثم قرأت الخطاب وهذا نصه :

« ابنة العم العزيزة ـ لقد اتصل بك دون شك خبر النجاح الذى أحرزته فى أعمالى وقد كنت انت سببا فى اسعادى وها قد رجعت غنيا بعد أن اتبعت نصائح عمى الذى اتصل بى خبر وفاته ووفاة امرأة عمى عن طريق السيد كريسان . ان موت أهلنا شىء طبيعى ومقدر لنا نفس النهاية . نعم يا ابنة العم العزيزة لقد مضى وقت الاوهام . وبعد ان سافرت الى بلاد عديدة بدأت أفكر فى الحياة وتغير الوتد الذى كنت

تعرفين واصبح انسانا كامل الرجولة . وانني افكر الان في كثير من الاشياء التي لم اكن اعيرها شيئا من الاهتمام في الماضي . انت حرة يا ابنة العم وانا لازال حرا كذلك وليس هناك مايمنع من تحقيق آمالنا الصغيرة القديمة ولكنني شديد الصراحة لدرجة تمنعني من ان اخفي عنك حقيقة مركزي الاجتماعي . انالم انس الوعد الذي قطعته على نفسي . وكثيرا ماكنت اتذكر في اسفاري الطويلة ذلك المقعد الخشبي الصغير

وقفت يوجيني كأن ابرا وخزتها ثم ذهبت وجلست على الدرج في طرف الفناء تستانف قراءة الخطاب : «... المقعد الصغير حيث تعاهدنا على تبادل حب خالد . ولم انس غرفتي في تلك الليلة حيث تفضلت باعارتي دراهم سهلت مهمتي تسهيلا كبيرا . ان هذه الذكريات كانت تشدد عزيمتي على الكفاح وتدفعني على انك لم تنفصلي عن التفكير في . كما انني كثيرا ماكرت فيك . ولهذا اضرع اليك ان لاتقطعي صلات الصداقة العميقة التي يجب ان تربطني بك . ان مايهمني الان هو ان ارتبط بصلة تحقق جميع الافكار التي بنيتها على الزواج وفوق ذلك فان الفرق الكبير بين سني وسنك ربما اثر في مستقبلك اكثر من تاثيره في مستقبلي . هذا وانني احدثك عن ثقافتك وعاداتك التي لايمكن ان تتفق بحال من الاحوال مع الحياة التي ارغب فيها ، ذلك ان من اقصى رغباتي ان استقبل كثيرا من الناس وان اقيم كثيرا من الحفلات . وانت كما اعتقد لاتستهويك الا حياة لطيفة هادئة . لا ، ساكون اكثر صراحة وساجعلك حكما عادلا على موقفي . انني املك الان دخلا سنويا قدره ثمانون الف ليرة . هذه الثروة تتيح لي الارتباط بعائلة دي بريون والزواج من فتاتها التي لها من العمر تسعة عشر سنة وانني اعترف لك يابنة العم بانني لاحمل للانسة

دي بريون درة واحدة من الحب ولكنني اضمن لاولادي مراكز اجتماعية مكفولة الفائدة .

« وهكذا ترين يا ابنة العم العزيزة باية صراحة اكشف لك عن لواعج نفسي . ومن الطبيعي من جهتك ان تكوني قد نسيت هباذنا الطفلة بعد ان مضى عليها هذا الزمن الطويل واذا كنت اصارحك باضطراري الى اجراء الزواج الذي تكلمت عنه ، فانني ادعوك في نفس الوقت ، الى السماح لي بالاحتفاظ بتلك الصورة التي طبعت في مخيلتي خلال الفترة القصيرة التي قضيناها معا وارجو ان تظلي على ودك وان تكوني لي خير صديق .

« ابن عمك المخلص : شارل »

« حاشية : تجدين طيه تحويلا على مصرف كريسمان بمبلغ ثمانية آلاف فرنك وهي النقيمة التي تفضلت بقراضي اياها مضافا اليها الفائدة المستحقة . انني ارجو ان ترسل لي الاشياء البسيطة التي اودعتها لديك الى قصر دي بريون - شارع هيلران - برتان »

يالها من صدمة مروعة ! . لقد غرق المركب دون ان يبقى منها لوح او حبل يساعد على العوم والنجاة . وعندما انتهت يوجيني من قراءة الرسالة المروعة ارسلت بصرها الزائغ الى السماء وتذكرت نظرات امها المنشائمة ثم اخذت تستعرض تلك الصورة وقد ايقنت ان لا امل لها الا في مواصلة الصلاة في انتظار يوم الخلاص .

ثم صعدت الى غرفتها دون ان تمر في اثرها كعادتها اذ كان اتفه الاشياء فيها يذكرها بشارل

وما لبثت طويلا حتى اعلن لها خبر قدوم القسيس كريشوه .. وكان هذا القس من مؤازري مشروع تسبيه

الحاكم ولقد دفعه هذا الاخير الى الحراء يوجيني بالزواج منه وتحبيبه اليها ، ضاربا بذلك على الوتر الديني الذي كان عظيم التأثير في الفتاة التقية الشديدة الورع .

وظنت يوجيني أن رجل الدين جاء يطالبها بالمبلغ الذي تعودت توزيعه على الفقراء في كل شهر فامرت باحضاره له على الفور .. ولكن القس ما لبث أن ابتسم وقال :

ـ انما جئت في هذا اليوم أيتها الآنسة ، كي احدثك عن فتاة مسكينة تنحدث عنها كل سومور وهي تمنع رأفتها بنفسها تحيا حياة بعيدة عن روح الديانة المسيحية .

ـ يا الهي .. ياسيدي القس ! انك تجدني اليوم في حالة لا أستطيع معها التفكير في أكثر من نفسي .. فانا شقية لدرجة تدفعني دفعا الى الكنيسة كي أستمد منها التسلي والسلوان الذين لا ينضب معينهما فيها ..

ـ حسنا يا آنستي .. عندما تهتم بالفتاة التي ذكرت ، انما تهتم بك نفسك .. اسمعي .. اذا كنت تريدين العيش في هذا العالم فعليك اتباع احدى طريقتين : اما أن تهجري الناس وما ان تخضعي لنواميس حياتهم .

ـ آه ! ان صوتك يناجيني في الوقت الذي احتاج فيه الى سماع أي صوت رحيم .. نعم ان الله وحده هو الذي بعثك الي يا سيدي ، سأقول وداعا لهذا العالم وأعيش من أجل الله وحده في العزلة والهدوء ..

ـ من الضروري ان تفكري طويلا يا آنستي قبل أن تفكري في اتخاذ مثل هذا العزم .. فالزواج حياة ثانية بينما الرهبانية هي الموت ..

فصرخت يوجيني والهة :

حسنا .. الموت الموت .. ياسيدي القس

ـ الموت ؟ ولكن هناك واجبات اجتماعية كثيرة يجب عليك تأديتها في هذه الدنيا .. الست والدة الفقراء ؟ الا تقدمين لهم الملابس والاحتشام في الشتاء والعمل في الصيف ان ثروتك الكبيرة هي قرض كبير ، عليك أن تؤديه بضروب الاحسان .. وانت نفسك لقد فهمتها على هذه الصورة لغى بكلامي .. ان زوجا صالحا ضروري لك ، ويجب عليك ان تحافظي على نعمة الله اذ انه قلبك يحب الخير والاحسان .. وانك لتقدرين هذه الهبة حق قدرها اذ جعلك في هذا العالم امثولة حسية للتضحية والايثار والتفاني في سبيل البر .

* * *

وفي هذه الاثناء دخلت السيدة كريسان مقودة بدافع الانتقام والشماتة لتقول :

ـ أيتها الآنسة ! .. هذا سيدي القس ! انني اصدمت لقد جئت احدثك عن الاعمال وأرى أنك في جلسة دينية رهيبة .

فقال القس بادي الجزع والقنوط :

ـ انني ادع لكما حرية الكلام ، فأنسحب .

ـ أوه ياسيدي ! أرجوك أن ترجع بعد بضع ثوان فان مساعدتك ضرورية لي في مثل هذا الوقت .

ولمغمغت السيدة كريسان :

ـ نعم يا ابنتي المسكينة !

فسأل القس :

ـ ماذا تريدين أن تقولي ؟

ولكن السيدة استطردت تقول للفتاة :

ـ ألا تعرفين شيئا عن رجوع شارل الى باريس وعن زفافه بالآنسة دي برجون ؟

فاشتد شحوب وجدتى يوجينى وظلت صامتة ولكنها ما لبثت أن استعادت الهدوء وعدم التأثير المأثورين عن أبيها ، واجابت عزلة :

ـ حسنا ياسيدتى . انني حقا غبية ولم افهمك . تكلمى امام القس فهو صديق كما تعلمين .

ـ حسنا ياآنستى انظرى ماذا كتب الى زوجى كريسان ؟ اقرئى

وقرات يوجينى الخطاب التالى :

« امرأتى العزيزة . رحل شارل جراندية من الهند وهو فى باريس منذ شهر » ..

وقالت يوجينى فى نفسها : شهر ؟ !

واستطردت السيدة كريسان تقرأ بقية الخطاب :

« لقد اضطررت أن انتظر ثلاث مرات متواليات حتى اتيح لى أن اكلم هذا الرجل الذى سيصبح الكونت دى بريون وبالرغم من أن كل باريس يتكلم عن قرب زفافه الى الآنسة دى بريون فانه لم يزل بعيد الاحتمال . لان الكونت دى بريون لن يزف فتاته الى ابن رجل مفلس ، فقد أطلعته على الجهود التى بذلتها أنا وعمه فى سبيل المحافظة على اسمه وفى سبيل حمل الدائنين على الانتظار حتى الآن لكن النذل الصغير لم يتردد على القول لى انا الذى صحبت كثيرا فى سبيله فى خلال سبع سنين بأن « اعمال أبيه غير اعماله » . لكن صبرا فان عليه أن يدفع الى الدائنين مبلغ مليون ومائتى الف فرنك والا اعلنت افلاس أبيه فى خلال بضعة ايام . واذا كان شرف السيد جراندية لا يهمه ، فان شرفى يهمنى .. ولهذا ..

ولهذا أريد الان أن اشرح موقفى أمام الدائنين . ولكننى أحترم كثيرا الآنسة يوجينى التى كانت علاقتنا معها فى الماضى .....

واذ ذاك قالت يوجينى :

ـ اشكرك أيتها السيدة (كريسان) سننتظر فى هذا

ـ انك تترددين فى هذه اللحظة نفس عبارة المرحوم ابيك ؟

وقالت يوجينى بعزم وهى تواجه الفكرة التى اعتزمت تحقيقها : هل يعتبر من الخطايا الدينية أن تتزوج فتاة وان تحافظ بعد الزواج على حالها كفتاة ؟

فأجابها رجل الدين :

ـ هذه مسألة خاصة أجهل الحكم فيها . واذا كنت تريدين ان تعرفى رأى الفقهاء القدماء فاستطيع أن اقول لك ذلك غدا .

ثم ذهب القس وصعدت يوجينى الى مكتبها ولم تنزل الى الغداء رغم الحاح نانون ولكنها ظهرت عند المساء فى الساعة التى يتواعد فيها الزائرون . ولم يكن صانون آل جراندية ممثلنا أبدا كما كان فى هذا المساء فقد كان خبر مجىء شارل وخيانته الوضيعة قد انتشر فى كل محافل البلدة ولكن احدا من المتطفلين لم يستطع اختراق حجاب يوجينى الروحى الذى لم يظهر عليه أى تأثر اذ حافظت الآنسة على هدوئها الكامل بل استطاعت أن ترد على أسئلة الزوار بابتسامات ترسلها جزافا . وعندما أزاد الزائرون الانصراف وقع حادث ظل حديث الناس فيما بعد فى كل سومور وضواحيها .

فقد قالت يوجينى للسيد دى بونفون عندما رأته يتناول عصاه ويريد الخروج :

ـ ابق ياسيدى . انني فى حاجة اليك

ثم قالت له يوجينى عندما أصبحا وحيدين :

ـ أنا اعرف ما الذى يحببنى اليك . اقسم لى على أنك

تدعنى حرة طوال حياتى ولن لا تطالبنى بالقيام باى واجب من الواجبات الزوجية قبل الاقتران بك .

واستطردت عندما رأته يجثو على قدميه :

ـ انني لم اقل كل شيء ! لاأريد أن أخدعك ياسيدى ، الصداقة هى العاطفة الوحيدة التى استطيع ان اهبها لزوجى وانت لن تحصل على يدى واروتى الا بعد ان تقوم لى بمهمة كبيرة .

جثا الحاكم على ركبتيه أمام الوارثة الغنية وهو يتمتم كلمات الفرح والسرور :

ـ سأكون عبدك المخلص .

ـ عندما تحصل على جميع الايصالات احملها مع كل اوراق عمى الى ابن عمى واعطه هذا الكتاب وسأحافظ على عهدى عند رجوعك .

ـ انني مستعد لكل شيء .

ـ هذا مليون ونصف مليون من الفرنكات . اذهب الى باريس ليس غدا ولا فى هذا المساء ولكن فى هذه اللحظة !

اقصد السيد كريسان واستعلم منه عن جميع دائنى عمى واجمعهم ثم ادفع لهم جميع ما يستحقونه من المال بالطرق القانونية التى تعرفها بحكم وظيفتك . انك رجل نزيه وسأقلع فى مركبتك وسوف اقضى الحياة فى ظل اسمك وتقوم بيننا صداقة متبادلة . اننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل مما يجعلنا اشبه بالزميلين

وعندما ذهب السيد (دى بونفون) ألقت بوجينى نفسها على اريكتها واجهشت بالبكاء بينما اخذ الحاكم عربة البريد ووصل الى باريس فى مساء اليوم التالى . وفى صباح اليوم الذى تلا وصوله ، ذهب الى السيد كريسان وأحضر جميع الدائنين ثم دفع لهم أموالهم مع فوائدها باسم الآنسة

جراندييه . وكان لدفع الفوائد رنة دهشة فى محافل باريس وبعد ان انتهت جميع الاجراءات ذهب الى قصر دى بريون حيث قدم لشارل هذا الخطاب من بوجينى :

« يا ابن عمى . ان الحاكم دى بونفون مكلف ان يعيد اليك جميع الاوراق والحوالات التى تؤيد تسديد ديون أبيك فقد حدثونى عن الافلاس وخفت أن لايستطيع ابن رجل مفلس ان يرفع الى الآنسة دى بريون . نعم يا ابن عمى لقد حكمت حكما صائبا على فانا لا اعرف شيئا عن الحياة الاجتماعية ولن استطيع اسعادك فيما لو قدر لنا ان نتزوج . لتكن سعيدا فى تلك البيئة الاجتماعية التى دفعتك الى تضحية عرامنا الاول ولكى اجعل سعادتك كاملة لم ار أحسن من أن اقدم لك شرف ابيك عديه جليلة . وداعا . من ابنة عمك المخلصة (بوجينى) .

ابتسم الحاكم عندما لاحظ دهشة شارل عند انتهائه من قراءة الخطاب ثم قال له :

ـ بعد قليل ستعلن نبأ زفافنا .

ـ آه ستتزوج من بوجينى ؟ حسنا ، انني مسرور ، فهى فتاة طيبة ، ولكنى لم اكن أعرف .. أهى اذن غنية ؟

فاجاب الحاكم بلهجة طبيعية :

ـ كانت منذ بضعة أيام تملك مايقرب من التسعة عشر مليونا ولكنها لم تعد تملك الآن الا سبعة عشر مليونا .

ـ سبعة عشر مليونا ياسيدى . سيكون ايرادنا السنوى مجتمعا أنا والآنسة جراندييه مايقرب من سبعمائة وخمسين الف ليرة .

ـ سبعة .. عشر .. مليونا ؟!

ـ ياسيدى العزيز ! نستطيع ان يساعد بعضنا بعضا .

ـ نعم وهذه عليه أخرى كلفت بتقديمها لك

ثم وضع على النضد تلك العلبة التى كان شارل قد قسمها ليوجينى

فقالت المركيزة دى بريولى وهى تدخل دون ان تعير اقل انتباه لضيفه :

– لا تتأثر بما يمكن ان يكون قد قاله لك هذا المسكين دى بريون الذى غيرت افكاره الدوقة (دى شوليو) التى اعيد تأييدى لك ان ليس هناك من قوة تستطيع ان تقف عثرة فى سبيل زواجك ..

فاجاب شارل : نعم لم يبق مايعترض سبيل زواجى لان الاموال التى كانت على المرحوم ابى قد دفعت بأجمعها .

– ما ....

– نعم سدد رأس المال والفوائد

فقالت مشيرة الى الضيف عامسه .

– من هذا السيد ؟

– انه وكيل أعمالى .

فحيت المركيزة السيد دى بونفون فى فتور ثم خرجت . وعاد شارل يقول للحاكم :

– لقد اتفقنا .. وداعا يانسيبى ..

ثم راح يقول لنفسه :

– ان هذا الفروى يهزأ منى .. انى لاشعر برغبة فى اغراق حسامى بدمه !

وبعد ثلاثة أيام من وصول الحاكم دى بونفون أعلن زفاف بيوجينى .

وكان زواجا لحمته المطامع وسداه الجشع ، فقد حسب الحاكم أنه قد غدا بهذا الزواج أكبر أغنياء المقاطعة وأقربهم الى أعلى المناصب . وكان يدرك فى قرارته ان الفارق فى العمر بينه وبين يوجينى هائل يبتلع كل عاطفة ويقضى على كل شعور

بالحب والائتلاف ، كما كان يدرك تماما أن (الفتاة) ما زالت مشغوفة بابن عمها .. تحبه حب العبادة .. وستظل تجتر حبها القديم الى يوم أن تموت .. بل كثيرا ما كان يرقبها فى خبث ودهاء وهى تذوى وتذيل أمام ناظريه ، حتى كادت تشرف على الهلاك لولا أن بها مسكة من العقل وذخيرة من من التقوى وايمانا راسخا برحمة الله . وما كان يهمه أن تضوى وتقضى بدورها كما قضت امها من قبل .. بل كان يرضى جشعه أن تنشب فيها المنية أظفارها بأسرع ما تستطيع فيرثها ثم يتحين فرصة اخرى لغل فريسة ثانية من الفتيات الثريات تقع بين مخالبه .

ولم يكن يتورع أن يذكرها بابن عمها ويحدثها بما يسمعه عن استهتاره ومجاذله ، فكانت الفتاة يتمزق فؤادها وتمضى الى مخدعها حيث تظل ساعات تصل الى ربها وتضرع اليه أن يحول بين شارل وبين عصيان خالقه وتلويث سمعته بعد أن حرصت من جانبها على هدايته وصيانة شرف والده .

ولم يعن الحاكم بأن يعاشر مع يوجينى كما يعاشر الرجل مع أخته أو كريمته ، طالما لا يطمع فى غير مالها ولا يطمع فى غير املاكها ، وما دامت لا تسأله ماذا فعل بما جمعه من ايراد ضياعها وكرومها ولا تسأله الا نصيباً توزعه عن الفقراء والجمعيات الخيرية ما بين آونة واخرى . فقد وجدت فى الترفيه عن آلام الغير ترفيها عن جراحات نفسها والفت فى التسرية عن الاياس والشكلى تسرية عن فؤادها الحزين الكليم . ومضت تقضى سحابة يومها بين الشاى من الاطفال تحوطهم برعايتها وتكلؤهم بحنانها وتتعهدهم بالبر والاحسان . وطالما رحمت الفتيات من حليها واغدقت عليهن من مالها ما يقدمنه باقة لازواجهن . وهكذا ما برحت

بوجيني العذراء تملأ النفوس حولها اشراقا وسناء وتبذر في قلوب غيرها بذور السعادة والهناء .

بينما مضى الحاكم (زوجها) يعمل لنفسه وحدها .

ولم يمض وقت طويل حتى عين مستشارا فـــــابيا وظل يتقلب في الوظائف الحكومية العالية حتى جاء وقت طمح فيه أن يصبح نائبا . ولكنه لم يهنأ في هذا المركز الجديد اذ حدث بعد أن أصبح نائبا عن سومور بثلاثة أيام أن توفي قبـــل أن يقوم بتحقيق آماله الجشعة . ولعل العناية الالهية هي التي قدرت له هـذه النهاية جزاء له على الاعيبه وادوار اتى مثلها للاستيلاء على ثروة يوجيني الساذجة التي عاهدت نفسها أن تؤول جميـــع أملاكها وأموالها الى زوجها اذا لم تنجب .

وكان الله قد حبا يوجيني دقة في الاحســاس ومعرفة بأحوال الحياة اكسبتها اياها التجارب العديدة التي مرت بها وجعلتها تعتقد أو زوجها كان ينتظر وفاتهـــا بفارغ الصبر ليستحوذ على أموالها الطائلة ويضيفها الى الاموال التي كان قد ورثها عن قريبيه كاتب العدل والقس ، الذي احب الله قربهما فاستدعاهما اليه .

ولكن العناية الربانية المطلعة على كل شيء ، جازته على ضعته ، وقبضت روحه ، وكنست الذهب تكديسا في خزائن يوجيني ، التي كان هـــذا المعدن بالنسبة اليها من أتفـــه الاشياء !

وجـــدت فتاتنـــا نفسها تملك ثروة هائلة ، ومظهرا لا يخلوا من جمال وهي بعد في سن الاربعين .

كان وجهها هادئا أبيض النقاطيع ، وكان صوتها لطيفا وحركاتها غاية في البساطة . على الرغم من ايرادها السنوي

الكبير فان السيدة دى بونفون ما زالت تحيا نفس الحياة التي كانت تحياها فيما مضى الآنسة يوجيني جرانديه . فهي لم تزل تسكن بيت أبيها القائم دون أن تجرى فيه أي اصلاح . وهي لا توقد النار الا في الايام التي كان المرحوم أبوها يسمح فيها بايقادها . وهي ترتدي ثيابا أقل بســاطة من ثياب المرحومة امها .

ولولا اعمال البر التي كانت تقـــوم بهـــا كفتحتها في سومور مكتبة تحوى أنفس الكتب وأندرها وانشائها مدرسة دينية ضمت الكثير من الفتيان والفتيات ، وبنائها مستشفى لمداواة الفقراء بالمجان .. لولا ذلك لكان أهالي سومور وجدوا في مسلكها كثـــيرا من المظـــاهر تدفعهم الى وصفها بالبخل والتقتير .

بل كانت يد هذه المرأة تضمد في خفية جراح جميع العائلات وستمضي الى السماء محاطة بآلاف الحسنات والاعمال القلبية . ولقد ابتاعت من علو نفسها وسمو عواطفها ما ستر قلة نصيبها من الثقافة وقلل من أهمية عاداتها الساذجة .

هذه هي المرأة التي لم تكن من الناس ، رغم عيشهـــا بينهم ، التي خلقت لتقـــوم عن جدارة بدور الزوجة والام ، ولكنها لم تهنأ بأم أو زوج ، ولم تنعم بأولاد أو أسرة .

تمـــت

www.liilas.com
منتديات ليلاس

هيئة قناة السويس

هكذا تعبر السفن القناة

١ ـ الاخطار باقتراب السفن من مدخلى القناة .

تقوم السفن المتجهة صوب احد مدخلى القناة ،عند بلوغها مدى الاتصال ، باخطار وكلائها لاسلكيا بمعلومات عن اسم السفينة وجنسيتها وعن اعتزامها عبور القناة أو مجرد التوقف فى الميناء والموعد المحتمل لوصولها ومدة توقفها ؛ وما اذا كانت تحمل مواد خطرة ، واية معلومات اخرى تفيد فى تحديد مركز الربط المناسب للسفينة داخل الميناء . ويبلغ الوكلاء بدورهم هذه المعلومات الى الهيئة واذا كانت السفينة تحمل مواد خطرة وجب تقديم الاخطار قبل وصولها باربع وعشرين ساعة على الاقل .

www.liilas.com
منتديات ليلاس

١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٢١٦٢٥

florist

العدد ١٧٢ الثمن ٣ قروش

بوجيزة جراندية
الثمن ٣ قروش
١٧٢